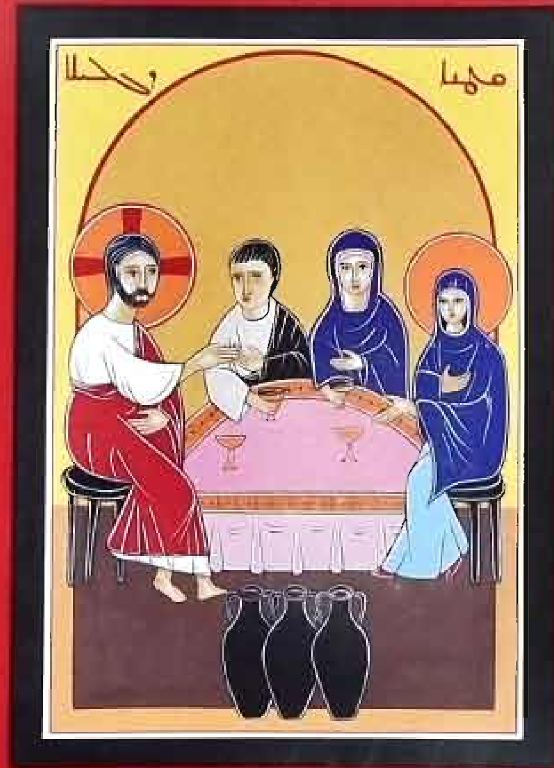
جمعية «على خطى المسيح في جنوب لبنان»

قانا الجليل

أفكار حول احتمال تحديد هويّتها



ناجي مارون كرم

دار سائر المشرق

جمعية «على خطى المسيح في جنوب لبنان»

تعنى جمعية «على خطى المسيح في جنوب لبنان»، بتتبّع خطى المسيح في أرض جنوب لبنان المقدّسة، وبمحاولة رسم دروبها بالاستناد إلى دراسة جيوفيزيائية من خلال تلالها ووديانها وينابيعها، وبالاستعانة بالمصادر والمراجع التي وضعها الاختصاصيون في الكتاب المقدّس وعلوم الآثار والتاريخ القديم.

و تشهد الأناجيل على أنّ منطقة صور وصيدا غالبا ما كانت تستقبل يسوع عندما كان يأتي مع تلاميذه لملاقاة الجموع معلّماً، مباركاً وشافياً.

وفي سبيل دعم مشروعها، أنجزت المؤسّسة حتى الآن عددا من الأعمال:

- في 16 أيار 2016، وضع مزار المنطرة - مغدوشه على الخارطة العالميةاكن السياحة الدينية.
- في صيف 2016، إجراء مسح أثري، بموافقة المديرية العامة للآثار، قامت به الدكتورة زينه حدّاد وتحت إشراف الدكتور ناجي كرم، عضو في المؤسّسة.
- عام 2020، إنتاج فيلم سينمائي طويل تحت عنوان: «على خطى المسيح»، مع المخرج اللبناني فيليب عرقتنجي.
- عام 2022، نشر كتاب بعنوان : «قانا الجليل: أفكار حول إمكانية تحديد هويتها».

*****

ناجي مارون كرم

دكتور في الفنون والآثار، أستاذ سابق في الجامعة اللبنانية، متخصّص وباحث في الآثار الفينيقية ويحمل دبلومًا في الإيكونوغرافيا البيزنطية من جامعة ستراسبورغ.

له عدة كتب في مجال اختصاصه وعدد كبير من المقالات العلمية وعشرات المحاضرات والمداخلات في المؤتمرات المتخصّصة.

منسّق الأبحاث الأثرية والتاريخية في "مؤسّسة على خطى المسيح في جنوب لبنان."



الطبعة الأولى
٢٠٢٢

بالتعاون مع جمعية «على خطى المسيح»

جديدة المتن–نهر الموت
رقم الهاتف والفاكس ٠١/٩٠٠٦٢٤

info@entire-east.com
www.entire-east.com

ISBN:978-614-451-272-2

صورة الغلاف: عرس قانا - عبدو بدوي - الفن المقدس - جامعة الروح القدس

مقدمة

قرأتُ بشغفٍ مخطوط الدكتور ناجي كرم حول قانا الجليل. وشكري الكبير له ومن خلاله لجمعية «على خطى المسيح في الجنوب» الساهرين دومًا لاكتشاف حقيقة أن أرضنا هي مقدّسة.

يخال إلينا أن قانا هي إحدى المواقع الأركيولوجية الأكثر تنازعًا في العالم. فبينما يجرّنا بعض الباحثين إلى داخل الجليل على ضفاف طبرية، يدفع بنا البعض الآخر إلى الجليل الأعلى، ولكلٍّ منهم نظرياته وتحليلاته التي تبدأ ولا تعود تنتهي. لكن العلم يساعدنا على تخطّي الشكوك. وها الكاتب الموثوق بكتاباته يعطينا ما عنده من دلائل لنبعد عنا الأوهام ونعيش لحظةً واقعية مع السيد المسيح في بدء رسالته العلنية في ديارنا في قانا. ولا نخفي ميلنا العفوي والعاطفي لأن نصدّق دراسة الدكتور كرم، ونضعها شعارًا على رؤوسنا، وفي مقدّمات كتبنا السياحية والدينية ونورثها لأجيالنا الطالعة. لكن العاطفة عندما تختلط باليقين تترسّخ في الفكر والقلب إلى الأبد. إنها رسالة جمعية «على خطى المسيح في الجنوب» ورسالة الكاتب وباقة أخرى من الكتّاب علّنا جميعًا نتبنّاها لتصبح قضيّتنا.

لا بدّ وأن نكتشف في المشهد الأركيولوجي أيضًا أثرًا كبيرًا في تحريك الإيمان لدى الحجّاج. فأن تصبح أرضنا في لبنان

والجنوب بنوعٍ خاص أرضًا مقدّسة، فهذه مسؤوليةٌ كبرى تجاه إلهنا الذي خصّنا بهذه الهدية القيّمة، وتجاه ذواتنا بالردّ على هدية الله بالالتزام بتعليم المسيح ونشر كلمته بين الأمم. ولا عجب في ذلك فلبنان وطنٌ ذكره الكتاب المقدّس تكرارًا ومرارًا. وأمسى علامةً وجود الله وانبثاق رسالته من هذه الأرض المباركة.

أعتبر كتاب «قانا الجليل» رسالةً إلى جميع اللبنانيين من العلاء. فلطالما تخصّنا السماء بنعمٍ كبرى كهذه، أمسى من الواجب علينا أن نعكس رضى الله علينا ونتّفق على العيش بكرامةٍ ترضي الله والناس.

بكلمةٍ وجيزة أودّ أن أشكر الكاتب الملهَم من الله الدكتور ناجي كرم ابن الجنوب والسائر مع رفاق الدرب «على خطى المسيح في الجنوب». وشكري يتركّز خاصةً في وضعنا من جديدٍ أمام نظرية «قانا اللبنانية» إذ يفتح لنا مجالاتٍ واسعة من الأحلام الدينية والسياحية. وإننا ننتظر دومًا الجديد من الباحث الكريم ليغنينا بغناه الفكري والروحي واضعين معه لبنان في قمة البلدان التي تمجّد الله.

المطران إيلي بشارة الحدّاد
راعي أبرشية صيدا ودير القمر للروم الملكيين الكاثوليك
والمدبّر الرسولي لأبرشية صور للروم الملكيين الكاثوليك
في ٢٠٢١/١٢/١٥

تمهيد

من النادر جدًّا في التاريخ أن نقع على اسم مكانٍ يثير جدلًا حادًّا طويل الأمد مثل اسم قانا. الحقيقة أن الرهان على جانب كبير من الأهمّيّة. فالاسم هو اسم قانا الجليل، البلدة التي شهدت أولى معجزات يسوع المسيح.

تأتي المشكلة من كون الإطار الجغرافي الذي كان مسرحًا لتجوال يسوع المسيح يضمّ ثلاث بلدات تحمل تقريبًا الاسم ذاته: كفر كنّا، وخربة قانا في فلسطين، وقانا الجليل في جنوب لبنان. (خارطة رسم ١ و٢) وكلّ واحدةٍ من هذه البلدات تدّعي أنها هي التي اختارها «ابن الإنسان» ليظهر مجده.

على الرغم من الرمزيّة الدينيّة والروحيّة، فإنّ المسألة تبقى في أساسها جغرافيّة وتاريخيّة. والكتابات التي تشهد على ذلك غزيرة جدًّا، إلى درجةٍ يصعب علينا أن نحيط بها بدقّة، كما تكثر حولها النظريّات على أنواعها. فترانا مرّة أمام مقترحات متشابهة ترتكز أحيانًا على الأدلّة ذاتها، أو تأكيدات متناقضة كليًّا، أو مواقف متحمّسة بعيدة كلّ البعد عن الموضوعيّة.

يعود الجدل حول هذا الموضوع إلى قرونٍ عدّة. وإن كنا نتناوله اليوم بالبحث، فلا ندّعي، في مطلق الأحوال، أنّنا سنقدّم جوابًا نهائيًا على مسألةٍ مزمنة وعلى جانبٍ كبير من التعقيد. سنسعى بالأحرى إلى مقاربةٍ تاريخية وأثرية بقدر ما تسمح به المصادر. ولا نقصد أن نعالج الأهمّيّة الرمزيّة والروحيّة لموقع قانا، بل سندرس البراهين والطروحات التي تصبّ في مصلحة هذه أو تلك من البلدات الثلاث التي تسعى كلٌّ منها كي يُعترف بها على أنها قانا الوارد ذكرها في إنجيل يوحنّا.

الحدث

بدأ يسوع رسالته في قانا الجليل. وفيها صنع معجزتَيه الأولين، وقد نقل تفصيلهما يوحنّا الإنجيلي.

المعجزة الأولى: يسوع يحوّل الماء إلى خمر

وفي اليوم الثالث، كان في قانا الجليل عرس وكانت أم يسوع هناك. فدعي يسوع أيضًا وتلاميذه إلى العرس. ونفدت الخمر، فقالت ليسوع أمّه: «ليس عندهم خمر». فقال لها يسوع: «ما لي ولك أيتها المرأة؟ لم تأتِ ساعتي بعد». فقالت أمّه للخدم: «مهما قال لكم فافعلوه».

وكان هناك ستّة أجران من حجر لما تقتضيه الطهارة عند اليهود، يسع كلٌّ منها مقدار مكيالَين أو ثلاثة. فقال يسوع للخدم: «املأوا الأجران ماءً». فملأوها إلى أعلاها. فقال لهم: «اغرفوا الآن وناولوا وكيل المائدة». فناولوه، فلمّا ذاق الماء الذي صار خمرًا، وكان لا يدري من أين أتت، في حين أنّ الخدم الذين غرفوا الماء كانوا يدرون، دعا العريس وقال له: «كلّ امرئٍ يقدّم الخمرة الجيّدة أوّلًا، فإذا سكر الناس، قدّم ما كان دونها في الجودة. أمّا أنت فحفظت الخمرة الجيّدة إلى الآن».

هذه أوّلى الآيات التي صنعها يسوع في قانا الجليل، فأظهر مجده وآمن به تلاميذه ونزل بعد ذلك إلى كفرناحوم هو وأمّه وأخوته وتلاميذه، فأقاموا فيها بضعة أيّام. (يوحنّا: ٢، ١-١١)

نلاحظ أن كاتب الإنجيل يروي القصّة بالتفصيل من دون أن يعطي أيّة تفاصيل إيضاحية لا عن المنزل ولا عن العائلة التي تنظّم الحفل ولا عن بلدة قانا وموقعها وسكانها. وهو يفضّل الكلام عن «علامات» بدلًا من «معجزات»، ويبدو أنّه يشدّد على الظهور الأوّل لمجد يسوع الذي «لم تأتِ ساعته بعد».

بالنسبة إليه، يسوع هو خارج الزمان والمكان ولسنا بحاجة لمعرفة الأماكن كي نؤمن. أن تكون المعجزة قد حدثت في قانا أو في مكانٍ آخر لا يغيّر شيئًا. المهمّ الرسالة التي يرسلها المسيح إلينا.

المعجزة الثانية: يسوع يشفي عن بُعد ابن عامل للملك

ورجع إلى قانا الجليل، حيث جعل الماء خمرًا. وكان هناك عامل للملك له ابن مريض في كفرناحوم. فلما سمع أن يسوع جاء من اليهودية إلى الجليل، ذهب إليه وسأله أن ينزل فيبرأ ابنه وقد أشرف على الموت. فقال له يسوع: «إذا لم تروا الآيات والأعاجيب لا تؤمنون؟» فقال له عامل الملك: «يا ربّ، انزل قبل أن يموت ولدي». فقال له يسوع: «اذهبْ، إنّ ابنك حيّ».

فآمن الرجل بالكلمة التي قالها يسوع وذهب. وبينما هو نازل، تلقّاه خدمه فقالوا له إنّ ولده حيّ. فاستخبرهم عن الساعة التي فيها تعافى. فقالوا له: «أمس في الساعة الواحدة بعد الظهر فارقته الحمّى». فعلم الأب أنها الساعة التي قال له فيها يسوع: «ابنك حيّ». فآمن هو وأهل بيته جميعًا.



رسم ١: خارطةٌ تظهر فيها البلدات الثلاث باسم قانا.

تلك هي الآية الثانية التي أتى بها يسوع بعد رجوعه من اليهودية إلى الجليل. (يوحنّا: ٤، ٦٤–٤٥)

مرّة أخرى، يتعلّق الأمر بقانا الجليل من دون أي تحديد جغرافي. ولكن مع تجاهله تحديد موقع البلدة، لم يكن الإنجيلي ليشكّ، ولو للحظة، بأنّ نصّه سيكون أساسًا لجدلٍ سيستمرّ حتى بعد ألفَي عام. والسبب هو أنّ هناك ثلاث بلدات، تقع كلّها في الجليل، تدّعي كلٌّ منها أنّها هي التي كانت مسرح معجزتَي يسوع فيها. (خارطة: رسم رقم ١ و٢)

وفيما يبدو أنّ اللاهوتيّين واختصاصيّي الكتاب المقدّس قد اكتفوا بالمضمون الروحي للنصّ، فإنّ المؤرّخين، في المقابل، لا يشعرون بالرضى. فتاريخ المعجزتَين ليس مذكورًا، كما أنّ الموقع الجغرافي لبلدة قانا غير محدّد. المشكلة إذًا لا تأتي من النصّ بحدّ ذاته بل ممّا لم يذكره.



رسم ٢: تفصيل من الخارطة الأولى.

جغرافيّتان

ورد أقدم ذكر معروف لاسم قانا في «اللوائح المصرية للطرق التجارية والتنقّلات العسكرية» التي تعود إلى القرن السابع عشر ق.م.[1] ثم نجد هذا ثانية، في مرحلةٍ متأخّرة، في سفر يشوع: «وخرجت القرعة الخامسة لسبط بني أشير بحسب عشائرهم... وتنفُذُ إلى عبدون ورحوب وحمّون وقانا إلى صيدون الكبرى». (يشوع ١٩: ٢٨). والواضح أنّ هذا النصّ يشير إلى البلدة الفينيقية الواقعة على قرابة إثني عشر كيلومترًا شرقي صور.

في «العهد الجديد»، وحده إنجيل يوحنّا يشير إلى قانا حيث صنع المسيح أولى معجزاته، تلبيةً لطلب مريم العذراء. أمّا الأناجيل الثلاثة الأولى التي تعطي رؤية عامة متقاربة لحياة يسوع فتتجاهل كلّيًا هذا الحدث الذي يمتاز في رأينا بأهمّيّة خاصة. فنحن أمام «بداية علامات يسوع؛ كان ذلك في قانا الجليل. لقد أظهر مجده فآمن به تلاميذه».

صحيح أن مؤلّفي الأناجيل الثلاثة الأول (متّى، مرقص ولوقا) لم يكونوا في قانا يوم العرس، ولا يوم صنع يسوع معجزته الثانية التي حملت الكثيرين على الإيمان به؛ ولكنّنا نجد أنّ هناك

1- Aharoni, The Land of the Bible p. 169.

الكثير من الأحداث قد وردت في إنجيل يوحنّا ولم تلقَ أي صدى في الأناجيل الثلاثة الأخرى. فهل نستطيع أن نتصوّر، ولو للحظة، أنّ هؤلاء التلامذة لم يطّلعوا في وقت لاحق على هذه الأحداث المهمّة وبنوعٍ خاص معجزات قانا التي جسّدت أولى «العلامات» وبداية رسالة يسوع؟

كيف يمكننا تفسير مثل هذا «النسيان»؟

قد تقدّم لنا كتابات اللاهوتيين واختصاصيي الكتاب المقدّس بعضًا من عناصر الأجوبة. يشدّد اللاهوتي جان-ماري سفران (Jean-Marie Sevrin) على أنّ إنجيل يوحنّا يمتاز بفرادة كبيرة مقارنة بالأناجيل الثلاثة الأولى. ويضيف هذا الراهب الفرنسيسكاني، وهو من كبار المتخصّصين بإنجيل يوحنّا، أنّ الجغرافيا وجدولة التواريخ وخاصة المبحث اللاهوتي العائد لشخص السيد المسيح تختلف عمّا ورد في الأناجيل الأخرى. بل أكثر من ذلك، فإنّه، «وإن كان يحكي القصّة ذاتها ويشارك بذات المادة الروائية»، فهو يتخطّى الميدان الذي يتحرّك فيه الإنجيليون الثلاثة الأول، ونراه يشرح الإنجيل بأسلوب جديد.[٢]

من جهته، سيمون كلود ميموني (Simon Claude Mimouni)، وهو مختصّ بتاريخ الأديان وبنوع خاص المسيحية واليهودية في العهود القديمة، يؤكّد على «أن الفرق الأكثر وضوحًا بين الأناجيل الثلاثة وإنجيل يوحنّا هو المتعلّق بالمحيط (الجغرافي) العام لرسالة يسوع. فالصورة في الأناجيل الثلاثة ترسم الحياة

2- Jean-Marie Sevrin : « Le Jésus du quatrième évangile », dans « Jésus et Jésus -Christ ». Paris, 2011.

العلنية على مدار سنةٍ تقريبًا، وهي تدور خاصّة حول بحيرة الجليل، وتنتهي بصعود يسوع مرّةً واحدة إلى أورشليم للاحتفال بعيد الفصح».[٣] بمعنىً آخر، يمكن القول إنّ تنقّلات يسوع، الذي كان «مبشّرًا متجوّلًا دائمًا على الدرب»، تندرج في «إطار عام» محدود وجغرافيا مصغّرة نسبيًّا.

أمّا بالنسبة إلى الإنجيل الرابع، إنجيل يوحنّا، فإنّه يرسم صورة مغايرة تمامًا: «يسوع يتنقّل باستمرار بين الجليل واليهودية، ويصعد إلى أورشليم أربع أو خمس مرّات لمناسبة أعياد الحج الكبيرة». (يوحنا: ٢، ١٣؛ ٥، ١؛ ٧، ١٠؛ ١٠، ٢٢؛ ١٢،١٢)[٤] وهو يسير بنا في جغرافيةٍ أوسع بكثير من تلك التي نواجهها في الأناجيل الثلاثة الأولى. فمن المنطق إذًا، أن يكون يوحنّا، المعروف منذ القدم بكونه شاهد عيان ذا قيمة كبيرة، هو من ينقل بشكل حصري بعض الأحداث المهمة التي تمّت خارج منطقة طبريّا. نذكر على سبيل المثال لا الحصر: الحوار مع نيقوديموس (يوحنّا: ٣، ١-٢١)، اللقاء بالسامرية (يوحنّا: ٤، ١-٣٠)، شفاء الأعمى (يوحنّا: ٩، ١-٤٠) وقيامة أليعازر (يوحنّا: ١١، ١-٥٢).

من الممكن إذًا أن ندخل في هذا الإطار الجغرافي أيضًا، أوّل «علامة» من رسالة يسوع، أي تحويل الماء إلى خمر في عرس قانا. فالأناجيل الثلاثة التي تحصر رسالة يسوع في منطقة

3- Simon Claude Mimouni: « Origines du Christianisme ». Conférences de l'année 2013-2014, annuaire de l'Ecole Pratique des Hautes Etudes. 30.

4- Ibid. 32.



رسم ٣: فلسطين والجليل في زمن المسيح ١٩١٢.
(مكتبة الكونغرس الأميركي)

الجليل

«في اليوم الثالث، كان في قانا الجليل عرس...» (يوحنّا: ٢، ١)

هذه الآية واضحة لا تحتمل التأويل. يقام العرس إذًا في بلدة قانا الواقعة في الجليل. فكلّ بلدة تحمل اسم قانا وتقع خارج الجليل لا يمكن أن تكون لها علاقة بالمكان الذي صنع فيه يسوع أولى «العلامات». وهكذا، فالذين لا يريدون القبول بأن بلدة قانا، على قرابة إثني عشر كيلومترًا جنوب شرقي صور، هي مكان المعجزة، يعتمدون فيما يعتمدون على مثل هذا «الدليل». فبالنسبة إليهم، قانا هذه، كانت تابعة لفينيقية وليس للجليل.[٥] ولكنّهم في الواقع يخلطون ما بين البلد والمنطقة والتقسيمات الإدارية التي فرضها المحتلّ الروماني.

الجليل منطقة كانت تنتمي إلى بلاد كنعان أو فينيقية. إحتلّها يشوع في القرن السابع ق.م. وكانت قد خطت منذ بداية الألف الثالث ق.م. خطوات متقدّمة في مجال التمدّن أسوة بسائر المناطق الكنعانية الفينيقية. ومن المرجّح جدًّا أن يكون اسم «الجليل» كنعانيًا أيضًا، إذ ليس هناك ما يشير إلى حدثٍ كبير في التاريخ يمكن أن يبرّر تغيير الاسم.

5- Carl Laney : « The Identification of Cana of Galilee ». Dallas Theological Seminary. 1977. P.91.

ومع مرور السنين، لم تحافظ منطقة الجليل على حدودها الإدارية، إذ كانت تتغيّر وفق المعطيات السياسية والتقسيمات المصطنعة. أمّا من الناحية الجغرافية فهي تصل شمالاً حتى الحدود الطبيعية لنهر الليطاني (نهر القاسمية).[6] (رسم رقم ٣)

خلال فترة احتلال يشوع لها، كانت المنطقة الشمالية الشرقية من الجليل تنتمي إلى «قبيلة أبناء أشير، بحسب عشائرهم». كانت أرضهم «تضمّ في الشمال عبدون ورحوب وحمّون وقانا حتى صيدون الكبرى». (يشوع: ١٩، ٢٤-٢٨). أمّا أشعيا فقد أطلق على الجليل الأعلى اسم «جليل الأمم»، جليل الوثنيين، وذلك بسبب تعدّد الأمم (فينيقيون، آراميون، مصريون...) التي كانت تقطنه. (أشعيا: ٨، ٢٣). فهو إذًا على ما يبدو بلد لم يكن يسكنه اليهود وحدهم.

نذكّر أيضًا بأن الملك سليمان في نهاية عهده كان قد أهدى حيرام ملك صور جزءًا من الجليل الشمالي، «أرض قابول»، التي لم تكن بعيدة عن عكّا، وذلك مقابل تقديمات تجارية واقتصادية (ملوك: ٩، ١٠-١٣).

كان الجليل إذًا، يمتدّ حتى حدود صور وكانت قانا الواقعة على بعد إثني عشر كيلومترًا جنوب شرق صور تشكّل جزءًا لا يتجزّأ منه.

6- Voir Dictionnaire Biblique, Galilée.

المصادر التاريخية

تغيّر تحديد موقع قانا الإنجيل غير مرّة عبر العصور، وذلك وفقًا لأبحاثٍ معيّنة، أو لتقاليد اكتسبت في أماكن الحجّ، أو لإيدولوجيات معيّنة أو تبعًا لمصالح متنوّعة. لذلك نجد أنفسنا في مواجهة تأكيدات أو تحليلات لا تستند إلى أية براهين مقنعة، بل تتلاحق وتتكاثر بل وتتناقض أحيانًا. وقد أدّى ذلك إلى ظهور أدبيات وكتابات كثيرة، ولكنها تعتّم في الحقيقة على وثائق وشهادات من القرن الرابع، أي فترة تحرّر المسيحية وانتشارها.

أوسيبيوس (Eusèbe de Césarée)

عاش أوسيبيوس من العام ٢٦٠ وحتى العام ٣٤٠ تقريبًا، وهو لا يزال حتى وقتنا الحاضر المرجع الذي لا يمكن الاستغناء عنه والأكثر ثقة وصدقية بالنسبة إلى تاريخ الكنيسة القديم. (رسم ٤). عاش أوسيبيوس مطران قيصرية معظم حياته في المنطقة وعرف الاضطهاد الذي تعرّضت له الكنيسة.

إتّخذت حياته منحى حاسمًا بفضل لقائه «بامفيل» (Pamphile) وهو فينيقي أنهى دروسه في الإسكندرية وعاد إلى قيصرية ليسام فيها كاهنًا. وحوالي العام ٣٠٠ أصبح أوسيبيوس بدوره كاهنًا. وبعدها بسنوات قليلة، نجا من الاضطهاد الكبير

الذي لحق بالمسيحيين على يد الإمبراطور ديوكليسيانوس خلال الأعوام ٣٠٣-٣١٣ والذي يعدّ الأكثر وحشية في تاريخ الإمبراطورية الرومانية.



رسم ٤: صورة أوسيبيوس قيصرية.
(القرن ١٦. مكتبة ليون الوطنية)

عندما عاد أوسيبيوس بعد أن عمّ «سلام قسطنطين» مع بداية عام ٣١٣، تمّ تعيينه أسقفًا على قيصرية. وبدأ دوره يتعاظم بسرعة. ليس فقط لأنه كان يدعى إلى الأعياد والاحتفالات الكبيرة مثل تدشين بازيليك صور (حوالي ٣٢٦)، بل لأنّه وطّد علاقته بالإمبراطور قسطنطين الذي كان معجبًا بسعة علومه ويثق به كامل الثقة.[٧]

7- H. Hemmer et P. Lejay (sous la direction de) : « Textes et documents pour l'étude historique du Christianisme. » Ed. Auguste Picard, Paris, 1913, p. XIII.

أصبح أوسيبيوس منظّر الإمبراطورية المسيحية «والرسالة الإلهية» المعطاة لقسطنطين، ولكنّه استمرّ بالدفاع عن لاهوتٍ قريب في بعض أوجهه من أفكار بدعة آريوس.

خلال إقامته الطويلة في قيصرية، توفّر له ما يكفي من الوقت لكتابة مؤلّفات كثيرة، منها «التاريخ الكنسي» الذي يبقى حتى يومنا المصدر الأهمّ لتاريخ الكنيسة في قرونها الثلاثة الأولى. ولم يكن هناك من سبقه في هذا المجال، كما يذكر هو نفسه في مقدّمة كتابه: «أنا أوّل من يقوم بمثل هذا العمل، والطريق الذي يجب أن أسلكه مقفر ولم يسلكه أحد من قبل. أما بالنسبة إلى الذين سبقوني في هذا المجال فلم أعثر لهم على أثرٍ مهمّ سوى بعض المعلومات الهزيلة التي تركوها كلّ وفق أسلوبه، وروايات مجتزأة للأوقات التي مرّوا بها». (التاريخ الكنسي: ١، ١-٣). بالرغم من ذلك لم يتردّد أوسيبيوس في الاستشهاد بأعمالهم كما يتبيّن من النصوص التي وردتنا.

لا تزال مؤلّفات مطران قيصرية تحظى بأهمّيّةٍ بالغة لمن يريد الاطّلاع على تاريخ القرون الأولى للمسيحية. وليس من قبيل الصدفة أن يعرف حتى اليوم بكونه «مؤرّخ الكنيسة». فهل يحقّ للمؤرّخين اليوم أن يتجاهلوا ما أكّده حول قرب قانا من مدينة صور الفينيقية؟

القدّيس يورونيموس (Saint Jérôme)

يُعتبر القدّيس يورونيموس الأشهر في مجال الدراسات البيبلية. ولد حوالي ٣٤٧ في ستريدون (كرواتيا حاليًا) وتوفي في ٣٠

أيلول سنة ٤٢٠ في بيت لحم. (رسم ٥). لكنّه لم يسكن دائمًا في الأراضي المقدّسة. عندما كان شابًا ذهب إلى روما للدراسة، ثمّ، في عام ٣٧٣، توجّه إلى صحراء خلقيس في سوريا حيث قرّر العيش متنسّكًا. بعد سيامته كاهنًا عام ٣٨٣ في أنطاكيا، عاد إلى روما وعيّن سكرتيرًا للبابا داماس الذي كلّفه بترجمة الكتاب المقدّس إلى اللغة اللاتينية. في العام التالي، توفي البابا فعاد يورونيموس إلى الشرق وتحديدًا إلى بلدة بيت لحم. فأسّس هناك ديرًا للرهبان وتفرّغ خلال خمسٍ وثلاثين سنة لترجمة النصوص البيبلية إلى اللاتينية.



رسم ٥: القدّيس يورونيموس.
(الغريكو. نهاية القرن ١٧)

ترك القدّيس يورونيموس إرثًا ثقافيًا على قدرٍ كبير من الغنى. فبالإضافة إلى ترجمته الكتاب المقدّس إلى اللاتينية، ترك لنا التعليقات القيّمة الخاصّة بكتب الأنبياء، ومراسلات غزيرة وعددًا كبيرًا من النصوص الجدلية القاسية أحيانًا ضد طروحات لاهوتيين معاصرين له، إلّا أنّه ظلّ في أحضان الكنيسة.

أتى القدّيس يورونيموس إلى الأراضي المقدّسة بعد سبعين سنة من صدور مرسوم ميلانو سنة ٣١٣، فوجدها تنعم بجوٍ خاص تميّز بحركةٍ لا سابق لها في مجال الحجّ. وكان يورونيموس مذهولًا بهذا الجو ويتكلّم بحماسة نادرة عمّا سمّاه «الحدث الكوني». وفي ترجمته لكتاب أونوماستيكون الذي وضعه أوسيبيوس، شدّد على ما ذكره «مؤرّخ الكنيسة» حول موقع قانا الجليل على مقربة من صور.

أبيفانوس مطران سالامين

ولد أبيفانوس، وهو قدّيس الكنيستَين الكاثوليكية والأرثوذكسية، في اليهودية (فلسطين) حوالي ٣١٥. (رسم ٦). كان يتيمًا من عائلة مزارعين يهود، وتبنّاه حاخام اسمه تريفون علّمه العبرية وثقافتها كما أورثه كلّ أملاكه. في مطلع شبابه، اعتنق أبيفانوس المسيحية واختار أن يذهب إلى مصر لمتابعة دراسته والتحق هناك ولسنوات عدّة بجماعة رهبانيّة.

سنة ٣٤٠، عاد أبيفانوس إلى فلسطين مسقط رأسه، وأسّس فيها ديرًا وأصبح رئيسه. وعلى الرغم من الضغوط الآريّة في ذلك

الوقت، بقي على وفائه لتعاليم مجمع نيقيا، واصطدم بأسقف بيت جبرين (Eleuthéropolis)، واستطاع، وفق ما أورد القدّيس يورونيموس، أن يعيده إلى «الإيمان القويم».



رسم ٦: أبيفانوس مطران سلامين

ثمّ هاجر أبيفانوس إلى قبرص لأسبابٍ لا تزال غير معروفة تمامًا. وفي سنة ٣٦٧ شارك في مجمع الجزيرة حيث انتخب أسقفًا على سلامين وبقي في منصبه حتى وفاته (٣٦ عامًا). وبفضل سعة ثقافته الدينية ووفائه لإيمان الكنيسة القويم، أصبح يتمتّع بشهرةٍ كبيرة، لدرجة أن الإمبراطور فالنس، الآريّ القناعات، لم يجرؤ على التعرّض له.

عاد إلى فلسطين سنة ٣٩٣ وسرعان ما اختلف مع عددٍ من رجال الدين مثل يوحنّا الثاني أسقف أورشليم، ويوحنّا الذهبي الفم أسقف القسطنطينية وميليس الأول في أنطاكية.

ترك لنا أبيفانوس أعمالًا كثيرة منها جدولًا بمجمل البدع السائدة آنذاك. ولكنّه يبقى معروفًا في تاريخ الكنيسة بأنه «المدافع الوفي عن الإيمان القويم». ولأنّه فلسطينيّ ويعرف المنطقة خير معرفة، تتّسم شهادته بأهمّيّة بالغة لاسيّما فيما يتعلّق بتحديد هويّة المواقع وبنوعٍ خاص «قانا الجليل»، أو «قانا الكبرى» كما سمّاها. وهي الصفة التي لازمت قانا صور عبر التاريخ كما سنرى لاحقًا.

حجٌّ وشهادات

لم يحافظ الحجّ إلى الأراضي المقدّسة على وتيرة واحدة. فطوال القرون الثلاثة الأولى لم يكن موجودًا، بل ممنوعًا بشكل قاطع. وكان المسيحيون المضطهدون والمقهورون يجتمعون بشكل سرّي ليصلّوا في أماكن خاصّة حوّلوها إلى دور للعبادة. لكنّ مرسوم ميلان (٣١٣) لم يضع فقط حدًّا للاضطهاد، بل أتاح أيضًا للمسيحية بأن تتحرّر، وسهّل في الوقت ذاته لحركة حجٍّ ناشطة باتّجاه الأماكن المقدّسة التي عادت تحيي ذاكرة التاريخ الجماعية عند المسيحيين.

كان القدّيس اسكندر، مطران كابادوكيا، بين الأوائل (٣١٢) الذين زاروا الأماكن المقدّسة. ثمّ أتت زيارة القدّيسة هيلانه فأعطت زخمًا جديدًا وشجّعت الحجّاج على التدفّق بكثافة إلى «أرض الوحي».

في إحدى رسائله، كتب القدّيس يورونيموس عن الحجّ إلى الأراضي المقدّسة ووصفه بالحدث الكوني: «يسرع الناس إليها من كلّ أقطار الكون؛ والمدينة تعجّ بكلّ أجناس العالم».[٨]

8- Epistola 48, ad Paulinum, Opera, Verone, t. I, col. 320.

غير أنّ هذه الحماسة لم يكن لترضي الجميع. فالقدّيس أوغسطينس لم يكن يؤيّد حتى فكرة الحجّ. وكتب يقول: «لم يقل الرب: إذهب إلى الشرق وابحث عن العدالة، أو أبحر إلى الغرب لتنال الغفران عن خطاياك... المحبّة وحدها وليس السفر تقودك إلى من هو موجود في كلّ مكان».

من جهته، اللاهوتي والمتعبّد غريغوريوس النيقي (de Nicée) اعترض بشدّة على الحجّ وحاول جاهدًا ومن دون جدوى إقناع المؤمنين بأن الروح القدس لا يتواجد في أورشليم أكثر مما هو في أي مكانٍ آخر. أمّا القديس يورونيموس الذي عاش طويلًا في بيت لحم وترجم الكتاب المقدّس، فأوضح موقفه وكتب: «ليس القدوم إلى أورشليم هو ما يستحق الثناء، بل أن نعيش فيها كما يجب».

هذه المواقف، الحازمة منها والمتساهلة، والتي عبّر عنها آباء الكنيسة، لم تترك على ما يبدو أي تأثير فعلي على التدفّق المستمرّ للحجّاج ولم تُضعف من التكريم الذي يخصّ به المؤمنون الأرض التي كانت مسرحًا لحياة وموت وقيامة يسوع. بل على عكس ذلك، راح المسيحيون، بدافع التفاني والشغف، «يبنون الكاتدرائيات في الأماكن الكبرى على المسار الذي اتّبعه المسيح، وغالبًا ما كان ذلك يترافق مع إعلان عقائد صادرة عن مجامع كنسية؛ ممّا سمح بتثبيت ما يشبه مسارًا ليتورجيًا يساهم في عمليّة تطوير الحجّ. العمارة القسطنطينية ترمز إلى قانون الإيمان الصادر عن مجمع نيقيا (٣٢٥) على سبيل المثال: بازيليك بيت لحم (التجسّد). على أثر مجمع القسطنطينية (٣٨١) الذي أعلن ألوهية الروح القدس، شيّدت كنيسة Sainte

Sion في ذكرى نزول الروح القدس (العنصرة). وما كاد مجمع أفسس (٤٣١) يعلن مريم أم الله حتى بنيت كنيسة فوق قبرها في أورشليم».[٩]

خلال بضعة قرون من الحرّية الدينية والحجّ المكثّف (٣٣٣-٦١٤) لم يترك الحجّاج إلّا القليل القليل من النصوص والشهادات والتوضيحات حول الأماكن التي زاروها. اقتصرت شهادات الحاج بوردو في ٣٣٣، وإيتيريا في ٣٩٣ والقدّيسة باولا في ٤٠٤ على بعض الأماكن التي عاش فيها المسيح أو مرّ بها وبنوعٍ خاص الأماكن التي شهدت مراحل آلامه.

لم تأتِ الفترات اللاحقة بجديد. فالمنطقة سقطت تحت احتلال الفرس الذين اضطهدوا المسيحيين ودمّروا كنائسهم.

في أواسط القرن السابع، بدأ انتشار الإسلام في الشرق الأدنى، وأعطي المسيحيون حرّيةً محدودة في الوصول إلى الأماكن المقدّسة، حتى عام ١٠٠٩ عندما قرّر الخليفة اضطهاد المسيحيين وتدمير قبر المسيح. ثم استولى السلجوقيون على أورشليم عام ١٠٧١ ومنعوا الحجّ نهائيًا على غير المسلمين.

تبدّلت الحال مجدّدًا مع نهاية القرن الحادي عشر الذي شهد تدمير القبر المقدّس. فقد حوّل الصليبيون مدينة أورشليم إلى مكانٍ رفيع للحجّ المسيحي، قبل أن تغرق مرّة أخرى في النسيان بعد قرابة القرنَين وتتحوّل إلى مدينة صغيرة وفقيرة.

9- Claude Tricoire : « Une histoire de pèlerinage en Terre Sainte. » Article publié le 11 août 2015, sur overglog.

في زمن الاحتلال العثماني (١٥١٧-١٩١٨) كان الحجّ المسيحي يزداد أو يضعف حسب أهواء الباشوات ومصالحهم المالية. والعنصر البارز في هذه الفترة هو اعتراف الكنيسة ببلدة كفركنّا على أنها مكان عرس قانا وأول معجزة صنعها يسوع، وفق ما ذكر العلامة كملنص كوب كما سيرد لاحقًا.

يمكننا أن نلاحظ إذا، أنّ النصوص الأقدم عهدًا تعود إلى القرن الرابع، وإلى ما بعد «سلام الكنيسة» بزمنٍ طويل أحيانًا. فمن الضروري أن يتمّ التعامل معها بحذر، «لأنّه من المحتمل أن يكون كاتبوها قد نسبوا إلى من سبقوهم اهتمامات هي في الأصل خاصة بهم، هم الذين كانوا يعيشون في عصر أصبح فيه الحجّ مؤسّسة بحدّ ذاتها».[١٠]

يمكننا أن نفهم أيضًا أنّ الدقّة في الملاحظة والتعبير عنها، والجغرافية بنوعٍ خاص، لم تكن من أولى اهتمامات الحجّاج الذين أتوا من بعيد إلى بلدٍ لا يعرفون لا أماكنه ولا طرقاته. وليس مستغربًا أن نجد في نصوصهم غموضًا وأخطاءً كثيرة. فعندما يحدّد «حاج بوردو المسافة بين عكّا وسيكانيوم (حيفا) بست كيلومترات فهو يخطئ بالنصف».[١١]

غير أنّ هذه الروايات تحافظ على قيمةٍ كبيرة بالنسبة إلى المؤرّخين، بانتظار اكتشافات أثرية جديدة قد تبدّل هذه المعطيات.

10- Histoire générale du christianisme, des origines au XV° siècle. P.U.F., 2010, p. 324.

11- Klemens Kopp : « Itinéraires évangéliques ». Traduit par A. Belkind, Paris. Ed. Mame. 1964. P. 277.

جذور المسألة

إنّ مسألة تحديد مكان أو هويّة قانا، مدينة أولى معجزات المسيح، كانت مثار جدل طويل عبر العصور. فهي بالنسبة إلى المسيحيين المكان الذي بدأ فيه الربّ حياته العلنية، خلافًا لما كان «مكتوبًا». عندما وصل يسوع وتلاميذه الجدد إلى قانا مدعوّين إلى عرس، كانت مريم موجودة هناك، ربّما كصديقةٍ للعائلة أو بصفتها قريبة أحد العروسَين. فطريقة تصرّفها والاهتمام الذي كانت تبديه لإنجاح الاحتفالات يظهران بوضوح أنه كان لها دور في تنظيم الوليمة.

إذًا، قانا هي القرية حيث مريم العذراء تدخّلت وغيّرت في «قوانين السماء»، وحملت المسيح على أن يظهر مجده للمرّة الأولى، مع العلم أنه قال إنّ ساعته لم تأتِ بعد.

إذا أضفنا إلى هذا الحدث الجلل، قوّة الجاذبيّة التي يتمتّع بها هذا الموقع بالنسبة إلى السيّاح والحجّاج والمنّ الذي يوفّره للصناعة السياحيّة، أدركنا جيّدًا مدى أهمّيّة تحديد مكان أو هويّة قانا الجليل من قبل أشخاصٍ آتين من آفاقَ متنوّعة: دينيةٍ، سياحيةٍ، ماليةٍ وغيرها.

وحده يوحنّا الإنجيلي ذكر بلدة قانا وأولى معجزات يسوع فيها بينما لا نجد أي أثر لها في الأناجيل الثلاثة الأولى. حتى يوحنّا الذي توقّف مطوّلًا عند تفاصيل المعجزتَين، لا يعطي تفاصيل عن مكان حصولهما ويكتفي بالقول إنهما حصلتا في قانا الجليل.

لكن المشكلة تأتي من واقع واضح وهو أن الإطار الجغرافي الذي كان يتجوّل فيه يسوع المسيح يضمّ ثلاث قرى تحمل تقريبًا الاسم ذاته: كفركنّا (أو كِنّا)، وخربة قانا في الجليل الأدنى، وقانا الجليل في الجليل الأعلى في جنوب لبنان. وكلّ واحدة منها تدّعي أنّ «ابن الإنسان» اختارها «ليظهر مجده». غير أن الأسماء الثلاثة تكتب بثلاث طرق مختلفة. ومن الضروري التشديد على كتابة هذه الأسماء، لأنّها في أساس الغموض المستمرّ منذ زمن.

فالاسم الأوّل «كفركنّا»، الذي أضيفت أليه كلمة «كفر» (ضيعة) وفق تقليد معروف، يكتب بحرف الكاف (ك) ويرد بأشكال ثلاثة: كَنّا، كَنّه، أو كِنّه) (Kenna, Kennah ou Kanna.)، وفي الحالات الثلاث يُشدّد حرف النون، ممّا يؤثّر جذريًا على اللفظ فلا يعود هناك أي تشابه مع الأسماء الأخرى.

الاسم الثاني: «خربة قانا». أضيفت إلى اسم «قانا» كلمة «خربة» لأنّ الموقع في حالة خراب، ربّما منذ الاجتياح العربي

في القرن السابع أو قبل ذلك التاريخ. غير أنّ الغربيين من باحثين ومستشرقين كتبوا الاسم بحرف (C) الذي لا يعبّر عن الواقع. في هذه الحالة تحديدًا أي «خربة قانا» يكتب الاسم بحرف القاف في الأبجدية السامية، وهو حرف يعجز عن لفظه الأوروبيون الذين استعاضوا عنه بحرف (C) فلفظوا الحرفَين بطريقةٍ متشابهة تمامًا. فاختلطت الأمور بين «قانا» و«كانا» و«كفركنّا» وتهافت الحجّاج على «كفركنّا» لقربها من بلدة الناصرة.

أمّا البلدة الثالثة فهي قانا الجليل الواقعة في لبنان على مسافةٍ قصيرة من صور، كبرى المدن الفينيقية. إن عمليّة إلحاق قانا لبنان بالجليل، قد تكون حديثة ولا تعطيها أي امتياز بالنسبة إلى كفركنّا وخربة قانا الواقعتَين أيضًا في منطقة الجليل. غير أنّ قانا اللبنانية التي كتبت دائمًا بحرف القاف معروفة جيّدًا منذ القرن الرابع وحتى القرن التاسع عشر بكونها «قانا الكبرى» (Qâna Major).

ما يزيد المسألة غموضًا هو ولا شكّ هجر المواقع ذات الصلة بحياة يسوع طوال ثلاثة قرون متتالية، كان المسيحيون خلالها مضطهدين لا يحقّ لهم ممارسة شعائرهم الدينية أو إشهار إيمانهم بأي شكل من الأشكال. كانو يجتمعون في الدياميس، كما في روما مثلًا، أو في منازل تمّ اختيارها لتكون أماكن عبادة، كما دورا أوروبس في سوريا. فما كانوا يجرؤون على التردّد إلى الأماكن المقدّسة التي طبعت بمرور يسوع فيها.

فثلاثمئة سنة من الهجر القسري للأماكن المقدّسة كانت كافية لكي يمحى ذكر بعض المواقع من الذاكرة الجماعية المسيحية. وما كان تهافت الحجّاج في القرن الرابع إلى كفركنّا لقربها من الناصرة إلّا ليزيد المسألة غموضًا ويؤدّي ببعض الباحثين إلى الوقوع في تحليلات خاطئة.

بين الشغف والموضوعية

منذ القرن الرابع حتى أيّامنا لا يزال اسم قانا يثير المشاعر. مقالاتٌ وأبحاث كثيرة لا تزال تنشر، على الرغم من تقليدٍ «راسخ» يسمح لبلدة كفركنّا الحالية بأن «تحلّ بحق محلّ قانا الإنجيل» وعلى الرغم من نشر «دلائل في القرن التاسع عشر تصبّ في مصلحة خربةٍ تبعد مسافة ثلاث ساعات مشيًا شمالي الناصرة.»

يسمح الاطّلاع على أكثرية المقالات والأبحاث باستنتاج ملاحظات عدّة:

- يتمّ، بشكل عام، تجاهل المصادر الأقرب إلى زمن المسيح أو الأقدم في تاريخ الكنيسة.
- نصطدم أحيانًا بتأكيدات ترتكز على براهين «منتقاة» جيّدًا مع إهمال الإشارة إلى وجود براهين أخرى.
- بعض المواقف تبدو أقرب إلى التعنّت، أيًّا تكن البراهين، بحجّة أنّ مكان المعجزة ليس مهمًّا بل المهمّ «الإشارات التي يرسلها لنا الرب».

- إنّ النقص في معرفة اللغات الساميّة يقود بعض الباحثين إلى تحليلات مضلّلة وغير مفهومة.

- تتكرّر البراهين ذاتها في كثيرٍ من الأحيان وكأنّ الباحثين يتناقلون المعلومات فيما بينهم.

- يتجاهل كثيرون من المؤلّفين المعجزة الثانية التي قام بها يسوع في قانا. (شفاء ابن الموظّف).

من البديهي أنّه لا يمكننا هنا أن نعرض لكلّ النظريات و«الأدلّة»، ولكننا نرى من المفيد أن نتطرّق إلى المواقف الأكثر مماثلة لما كتب عن قانا الجليل واحتمال تحديد مكانها أو هويّتها.

تحديد أوّل: كفركنّا بأي ثمن

تعرّف التقاليد ببلدة كفركنّا على أنها قانا الجليل، مكان أول معجزة للمسيح. وقد نشأت هذه التقاليد من تهافت الحجّاج إليها (في القرن الرابع بالنسبة إلى البعض أو أيام الصليبيين بالنسبة إلى البعض الآخر) وكرّستها الكنيسة في القرن السابع عشر.[12] ولا شكّ بأنّ موقع كفركنّا على مقربةٍ من الناصرة قد شكّل عاملًا حاسمًا في تحديد اختيار الحجّاج لها. ولا يزال هذا العامل يتّخذ مرجعًا «حاسمًا» في بعض محاولات تحديد هوية قانا الجليل.

فيكتور غيران (Victor Guérin) هو أحد الذين يدافعون بشكلٍ غير مشروط عن هذا التوجّه. إنه عالمُ آثار وجغرافيّ من القرن التاسع عشر (١٨٢١-١٨٩٠)، منتدب من مدرسة أثينا الفرنسية، وقام بعددٍ من الأبحاث في الجزر اليونانية، في آسيا الصغرى، ومصر وسوريا ولبنان وبنوعٍ خاص في فلسطين.

في كتابٍ بعنوان: «وصفٌ جغرافي، تاريخي وأثري لفلسطين»[13] خصّص فكتور غيران صفحات عدّة «لعرس قانا الذي تمّ خمسة أيام بعد أن كان سيّدنا قد تعمّد على يد يوحنّا في بيت عبرة على

12- Klemens Kopp : Les lieux saints des Evangiles. P. 152.

13- Victor Guérin : Description géographique, historique et archéologique de la Palestine. Troisième partie – Galilée. Tome I. Paris, 1880.

ضفاف الأردن. وغداة معموديّته مشى يسوع نحو الجليل، وإلى قانا تحديدًا، حيث كان العرس في اليوم الثالث.»[١٤]

قدّر غيران المسافة بين بيت عبرة وكفركنّا بـ٧٥ ميلًا رومانيًا (١١٠ كلم) واعتبر أن «ذلك وحده كافٍ لكي نميل إلى التفكير بأنّ كفركنّا هي التي يجب أن نتوقّف عندها لتحديد قانا الإنجيل.»[١٥]

لكنّه رأى أنه «من المحتّم أن نعالج المسألة بعمق لنعرف ما إذا كانت هذه البلدة هي قانا الإنجيل، أو يجب أن نبحث عنها في مكانٍ آخر.» فاستشهد بإدوارد روبنسون الذي يجهد ليبرهن أنّ «قانا الجليل، وبسبب اسمها أي قانا الجليل، واستنادًا إلى شهادات الحجّاج الأوائل، هي قانا الحقيقية وأنّه عليها أن تطالب بشرف شهادتها على أوّل معجزة لسيّدنا، وهو شرف انتزعته كفركنّا بغير حقّ منذ القرن السادس عشر.»[١٦]

يشير فكتور غيران أيضًا إلى نصوص أوسيبيوس القيصري والقدّيس يورونيموس اللذين يؤكّدان على أنّ قانا الإنجيل هي القرية الواقعة جنوب شرق صور والتي تنتمي إلى قبيلة أشير بحسب كتاب يشوع (انظر لاحقًا). ولكنّه يتعجّب من «وقوعهما بمثل هذا الخطأ» لأنّ قانا الإنجيل «يجب أن تكون، حسب قوله، أكثر قربًا من الناصرة وكفرناحوم، وأن تنتمي إلى قبيلة زبلون.»[١٧]

14- V. Guérin : p. 171.

15- Ibid. p. 172.

16- Ibid. P. 175.

17- Ibid. p. 176.

باستبعاده طرح أوسيبيوس ويورونيموس وبالتالي قرب بلدة قانا من صور، لم يعد أمام فكتور غيران إلّا أن يختار بين قانا الجليل (خربة قانا) وكفركنّا لتحديد مكان قانا الإنجيل. ولتوضيح الأمر، استنجد بشهادات الحجّاج وبالتحديد برواية حاجٍّ إيطالي من القرن السادس، Antonini de Plaisance، وهو غير القدّيس الذي يحمل الاسم ذاته، إنما هو شهيد من أواخر القرن الثالث.

«نرى في هذا المقطع، يقول غيران، أن أنطونيني ذهب من بتوليمايس Ptolémaïs إلى سيفوريس Séphoris أو ديوسيزاريا Diocésarée والمسمّاة هنا نيوسيزريا عن طريق الخطأ. ومن هناك وبعد ثلاثة أميالٍ وصل إلى قانا حيث حضر سيّدنا العرس. جلس وكتب أسماء أهله حيث كان قد جلس المخلّص نفسه، في قاعة الاحتفال التي تحوّلت إلى كنيسة. كانت لا تزال هناك جرّتان. ملأ واحدة بالماء وتحوّل الماء عجائبيًا إلى خمر، على حدّ قوله، فرفعها ممتلئة على كتفه وقدّمها أمام المذبح، وبعدها ذهب وغطس في النبع.»[١٨]

يشير غيران إلى خطإٍ وارد في النصّ ويسمح لنفسه أن يشكّك بالمعجزة المذكورة في الرواية، ولكنّه يشدّد على ضرورة أن نأخذ بكثير من الجدّية التوجّهات لمصلحة كفركنّا ومنها:

- قانا على مسافة ثلاثة أميال من سيفوريس.
- جرّتان لا تزالان هناك في أواخر القرن الرابع، في قاعة الاحتفال التي تحوّلت إلى كنيسة، بما أنّ هناك مذبح قد رفع فيها.

18- Idem. D'après : Antonini Placentini Itinerarium, Bollandi Acta sanctorium Maii, t. II, p. 10.

- عين ماء تجري في قانا.

يؤكّد غيران أن «هذه المواصفات الثلاث تنطبق تمامًا على كفركنّا وليس على قانا الجليل.» كما يؤكّد أيضًا، بعد ذكر حجّاج كثر زاروا كفركنّا خلال فترات مختلفة، أنّه لو استشرنا الحجّاج الأوّلين حول الموقع الفعلي لقانا الجليل، لرأينا أنّهم يتّفقون كلّهم تقريبًا على كفركنّا.»[١٩]

هنا لا بدّ لنا من التشديد على بعض الملاحظات:

- إن البراهين والأوصاف أيًّا كانت دقّتها تنطبق على كفركنّا، وليس لها أية علاقة بقانا المعجزة.
- إن شهادة أنطونيني تثبت زيارته للبلدة ولكنها لا تقنع أحدًا بأن هذه البلدة هي التي ورد ذكرها في إنجيل يوحنّا. فكتور غيران يبدي الشكّ حول قصّة الماء الذي يتحوّل إلى خمر بين يدَي الحاجّ، ولكنّه لم يتنبّه إلى أنّه تقبّل أن يرفع هذا الحاجّ على كتفه «جرّة» من الحجر تتسع لمكيالَين من الماء (٨٠ ليترًا).
- لا يشير غيران، ولو عرضًا، إلى احتمال اختلاف في نقل ولفظ «كنّا» و«قانا». ولا يلاحظ أي فرق بين حرف «الكاف» وحرف «القاف».
- إنّ اعتماده فقط على اللفظ اللاتيني إنّما يزيد من الغموض ويعزّز الالتباس، في حين أن مسألة تحديد هويّة قانا الجليل لا تحلّ إلّا بإشارات دقيقة.

19- Guérin, p. 182

تحديدٌ ثانٍ: التقليد السائد

التقليد الذي يحدّد أن كفركنّا هي قانا إنجيل يوحنّا لا يزال راسخًا في أذهان الكثيرين. كتب فردريك غودي، وهو أستاذ في كليّة الكنيسة المستقلّة في نوشاتيل (سويسرا)، أنّ هناك من يدّعي اليوم أنّه يعرف بوجود مكانَين في الجليل يحملان اسم قانا. الأوّل يسمّى قانا الجليل ويقع على بعد ساعتَين ونصف تقريبًا من الناصرة؛ والثاني يدعى كفركنّا ويقع على بعد عشرة كيلومترات من الناصرة من جهة الشرق. وفي هذا المكان، ومنذ القرن الثامن، يحدّد التقليدُ موقع الحدثَ الذي هو موضوع روايتنا.»[٢٠] ثمّ يشير غودي، كمن يريد تنبيه القارئ، إلى أنّه «منذ أن عزّز روبنسون شهرة المكان الأوّل بدأنا نميل لمصلحته.»[٢١]

يكشف روبنسون بالفعل عن زيارةٍ قام بها إلى المنطقة مع دليل، «عربي مسيحي»، قاده إلى مرتفع معروف باسم «الولي اسماعيل»، ومن هناك أرشده إلى مكان يبعد ثلاثة فراسخ (١٥ كلم) ويدعى «كانا الجهل»، فرأى في اسمه قانا الجليل في الإنجيل.»[٢٢]

20- Frédéric Godet : Commentaire sur l'Evangile de saint Jean. 1902. P. 570.

21- Idem.

22- Idem.

وفي اعتراضٍ على هذا التحديد لخربة قانا، لم يتردّد غودي في نشر ملاحظةٍ كان قد كتبها عام ١٨٧٢ في الناصرة بالذات. «بعد حوارٍ مع أوروبي كفؤ كان يرافقنا إلى الولي اسماعيل، أكّد لنا أنّ الاسم الحقيقي للمكان الذي ذكره روبنسون هو خربة قانا، وأنّ مرشده، وبدافع التهذيب العربي، نزل عند إلحاح الأسئلة من المسافر المشهور ولفظ الاسم المرغوب فيه أي قانا الجليل، الذي لا وجود له إطلاقًا في المنطقة.»[٢٣]

يسعى غودي أيضًا إلى دعم موقفه مستندًا إلى أعمال نشرها زيللر J. Zeller[٢٤]، مرسل في الناصرة، الذي «يقدّم وصفًا دقيقًا للمكانَين موضوع الخلاف»، ويحاول أن يبرهن أن التقليد المسيحي قد أعطى الأفضلية دائمًا لكفركنّا «حيث هناك آثار مهمّة نفتقدها في خربة قانا.» ويضيف غودي مشدّدًا على أنه «من المؤكّد أن اسم قانا الجليل لا وجود له اليوم» وأنّ «موقع كفركنّا، في كلّ الأحوال، يتناسب أكثر مع النصّ.»

بعدها ينطلق بمطالعةٍ معقّدة لمصلحة كفركنّا بدءًا من التاريخ المذكور في الإنجيل: «في اليوم الثالث» يقول إنّ «هذا التاريخ يؤثّر على المقطع اللاحق حتى (يوحنا:٥، ١١) ، وهو بالتالي اليوم الذي يجب أن تكون المعجزة قد حصلت فيه. وحتى لو لم

23- Ibid. p. 571.

24-J. Zeller: "Kefr Kenna", Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement I, 1869, 71-72.

يصل يسوع إلى الناصرة إلّا مساء اليوم الثالث، فقد كان بإمكانه أن يذهب قبل الليل إلى البلدة القريبة جدًّا أي كفركنّا -هذا لم يكن ممكنًا بالنسبة إلى قانا روبنسون- أو أنّه على الأرجح وصل مباشرةً من جنوبي كفركنّا من دون أن يمرّ بالناصرة.»

في مطالعته، يبني غودي تحليلًا منطقيًا على معطيات خاطئة. فهو يجهل على ما يبدو أنّ «خربة كانا» هي في الأصل ضيعة اسمها قانا، سمّيت «خربة» بعدما أصبحت خرابًا. ثمّ لا نراه يشير، ولو تلميحًا، إلى الاختلاف في اللفظ بين «قانا» و«كنّا»، ربّما لعدم إلمامه باللغات الساميّة. كذلك، استبعد منذ البداية قانا الواقعة جنوبي شرقي صور، لأنّ «إضافة كلمة الجليل (على اسم قانا) (يوحنا:٤٦، ٤ و٢١، ٢) يجب أن تكون تسمية دائمة هدفها تمييز قانا هذه عن مكانٍ آخر واقع خارج الجليل (قارن مع نصّ يشوع ١٩، ٢٨ حيث نرى الاسم على حدود فينيقيا).»[٢٥]

نستنتج مما تقدّم أن غودي لم يعر أية أهمّيّة لمسألة الجغرافيتَين: الأولى، الجغرافيا المحدودة في الأناجيل الثلاثة، والثانية، الجغرافيا الواسعة في إنجيل يوحنّا. (راجع فصل: جغرافيتنا).

25- Godet, Op. cit. p. 571.

تحديدٌ ثالث: الانتقاء المسبق

هناك تحديدٌ لهويّة قانا الجليل يقدّمه لانيه J.Carl Laney، الباحث في مؤسّسةٍ بيبلية كبيرة Dallas Theological Seminary وهي مؤسّسةٌ لاهوتية إنجيلية في دالاس (تكساس) تعنى بنشر عقيدةٍ مسيحية إنجيلية ترتكز على تحليلٍ بيبلي للتاريخ، وتعطي أهمّيّةً كبرى للأماكن الجغرافية الخاصة بحياة المسيح.

في بحثٍ بعنوان: «تحديد هويّة قانا الجليل»، نشر عام ١٩٧٧، يعرض لانيه حالة المواقع: كانه، كفركنّا وخربة قانا التي «يجب أن تكون موضوع نقد بهدف تحديد هوية قانّا الجليل حيث بدأ يسوع رسالته العجائبية.»

«كانه»-« Kanah »

يقدّم الباحث كتابة جديدة للاسم بإضافة حرف الهاء عليه ومن دون أي إيضاح، ثمّ يتطرّق إلى الأوّل «كانه» الواقعة على مسافة ثمانية أميال (١٢ كلم) جنوب شرق صور، فيقول «إنها قانا الحديثة التي تمّ الخلط بينها وبين قانا الجليل. أوسيبيوس ويورونيموس لم يفرّقا بين (كانه) هذه وأخرى واقعة جنوبي تلال الجليل فوصفاها على أنها قانا من قبيلة أشير (يشوع ١٩: ١٨) حيث حوّل سيّدُنا الماءَ إلى خمر.»

يزعم لانيه أن أوسيبيوس لم يكن يعرف سوى بلدة (كانه) الفينيقية فاعتبرها قانا إنجيل يوحنّا. لكننا نرى أنه من الصعب جدًّا أن نقبل بمثل هذا الزعم طالما أن الأمر يتعلّق بأوسيبيوس أسقف قيصرية البحرية في فلسطين حيث خدم طوال أكثر من ثلاثين سنة، وهو أوّل مؤرّخ للكنيسة ومؤلّف معجم «المواقع البيبلية» (Onomasticon). هل كان من المعقول أن يجهل وجود قانا على بعد بضعة عشر كيلومترًا من مقرّ أسقفيّته؟

يستند لانيه أيضًا إلى ملاحظةٍ دوّنها يورونيموس في ترجمته اللاتينية لمعجم «المواقع البيبلية» حيث يضيف أنّ قانا (الوارد ذكرها عند يشوع) تسمّى «الكبرى» لتمييزها عن مدينةٍ أخرى أصغر تحمل الاسم ذاته. سنرى لاحقا أنّ هذه الملاحظة من قبل يورونيموس تدعم طرح أوسيبيوس لأنّ الربّ قد حوّل الماء إلى خمر في مدينة قانا الكبرى وفق ما ورد عند الأسقف الفلسطيني أبيفانوس أسقف سلامين المعاصر ليورونيموس. (القرن الرابع).

في البحث ذاته، نقرأ أنّه «من غير المحتمل إطلاقًا أن تكون بلدة قانا من قبيلة أشير هي ذاتها قانا إنجيل يوحنّا.» ويضيف لانيه أن «أول رسالة ليسوع كانت موجّهة إلى اليهود، وليس إلى الأمم.» (متّى ١٠، ٥-٦). هذا التأكيد في رأينا لا يصمد أمام النقد. فمن قراءة نصّ إنجيل يوحنّا، نفهم أن يسوع لم يكن ينوي بدء رسالته في قانا، بل إنّه نزل عند رغبة أمّه مريم.

كاتب البحث نفسه يعترف أنّ يسوع «بشّر لاحقًا في مناطق صور وصيدا (متّى: ٢١،١٥)». ومن المعروف أنّ المسيح

كان يأتي إلى فينيقيا، وأنّه وصل غير مرّة إلى نواحي المدينتَين الفينيقيتَين الكبيرتَين. كان يعرف الفينيقيين جيّدًا ويقدّر بشكل خاص عمق إيمانهم، إلى درجة أن يستشهد بهم نموذجًا يحتذى به أمام جماهير يهودية مندهشة. (متّى: ٢٠،١١-٢٢) ولم يكن يتردّد في خرق التقاليد اليهودية فيذهب إلى لقاء الوثنيين: يحاور المرأة الكنعانية مثلًا ويشفي ابنتها. (مرقص: ٧، ٢٤).

يدعم لانيه فكرته بحساب المسافة إلى قانا قرب صور انطلاقًا من بيت عنيا شرقي الأردن. والواقع أن يسوع كان في الجليل في الجانب الغربي من النهر عندما انطلق إلى قانا. فقد ورد في أنجيل يوحنّا: «وأراد يسوع في الغد أن يذهب إلى الجليل، ولقي فيلبّس فقال له: اتبعني.» (يوحنّا: ٤٣،١). قد يُفهم من ذلك أنه كان في قانا في اليوم الثالث بعد لقائه فيلبّس غير أن كليمنس كوب يشكّك بذلك ويتساءل عما إذا كان العرس قد تمّ ربما في اليوم الثالث بعد وصول يسوع إلى قانا.[٢٦]

من الأدلّة التي يسوقها لانيه لاستبعاد قانا لبنان أنّ هذه البلدة كانت أيّام الرومان تابعة لفينيقية وليس للجليل، وكأنّ السكّان كانوا ينتظرون التقسيمات الإدارية للمحتلّ ليبدّلوا في أسماء مدنهم ومناطقهم. (راجع فصل: الجليل)؛ ثمّ يختم مشدّدًا على «أنّه من الواضح أن ليس هناك أي دليل يدعم تحديد قانا هذه بأنها قانا الجليل».

26- Klemens Kopp : « Itinéraires évangéliques. » P. 273.

كفركنّا

يبدو أنّ لانيه لا يميّز بين حرفَي الكاف والقاف، فيبقي كفركنّا بين البلدات التي يمكن أن تكون قانا الإنجيل. وهي بلدةٌ تقع على مسافة ستة كيلومترات تقريبًا شمالي الناصرة. هذا الموقع الجغرافي يستعمل دليلًا «مقنعًا» للقول بأنّ كفركنّا هي قانا الإنجيل. فالكنيسة الأرثوذكسية في البلدة تحتفظ بخوابي تخزين عتيقة يقال إنها هي التي استعملت عندما حوّل يسوع الماء إلى خمر. والفرنسيسكان يقولون إن كنيستهم الواقعة في وسط البلدة تملك وعاءً قديمًا ربّما كان من بين تلك الخوابي.

كذلك يستشهد لانيه بالحجّاج الأوائل الذين يشيرون إلى كفركنّا على أنها مكان معجزة المسيح الأولى، لكنّ «تأكيدهم هذا يجب أن يدرس بدقّة» وفق رأيه، ويصرّ على أنّ هناك موقعَين أساسيَين يمكن أن يكون أحدهما قانا إنجيل يوحنّا: كفركنّا وخربة قانا.

ثمّ يعرض بعض الأدلّة لمصلحة كفركنّا. فيعود إلى زيللر J. Zeller وهو مرسل بروتستانتي في الأراضي المقدّسة خلال القرن التاسع عشر، ويعتبر أنّ وضع كفركنّا الجغرافي هو الأكثر ملاءمة.[27] في تلك الفترة «لم تكن البلدة تضمّ سوى مئتَي بيت تقريبًا، ولكنّه وجد براهين كافية على أنها كانت أكبر بثلاث مرّات على الأقل ويقول بأنها بلدة جميلة.» غير أنّ لانيه يسرع فيوضح أن جمال موقع كفركنّا لا يشكّل دليلًا مقنعًا على أن البلدة يجب أن تكون هي قانا الجليل. فزيللر يقول فقط: «كفركنّا تتمتّع بموقع جميل، فهي إذا المكان المحتمل.»

27- J. Zeller, op.cit.

دليل آخر يستوحيه لانيه من ديكسون W. Dixon، مؤرّخ ورحّالة إنكليزي من القرن التاسع عشر، يرجّح كفركنّا «لأنّها تقع على تقاطع بين طريقٍ ريفية يسلكها الرعاة العبريون وطريقٍ إمبراطورية يسلكها الرومان.»[28]

لكن سرعان ما يستبعد لانيه كلّ هذه الأدلّة لأنّ «التقليد الذي يحدّد أنَ كفركنّا هي قانا الجليل هو تقليد حديث نسبيًّا، ويعود إلى ما بعد الصليبيين.» ويلتقي هنا مع كلمنس كوب الذي يروي أنّه وبعد انقطاع طويل للتقليد المسيحي، قام كارسميوس Quaresmius، حارس القبر المقدّس من ١٦٢٧ وحتى ١٦٢٩، «بإجراء تحقيق حول الموقعَين واتّخذ قرارًا لمصلحة كفركنّا.»[29] وقد أدّى نشر عمله الطوبوغرافي كاملًا إلى توجُّه العديد من الحجّاج إلى هذا الموقع. «ومنذ ذلك الحين والحجّاج لا يصفون إلّا قانا الواقعة شمالي شرق الناصرة، أي كفركنّا.»

غير أن المفصل الحقيقي في التقليد، حسب لانيه، كان سنة ١٦٢٠ حين وصل الفرنسيسكان إلى الناصرة واستملكوا معبد البشارة. وسنة ١٦٤١ اشتروا بيتًا في كفركنّا قرب جامع البلدة. ثمّ تمكّنوا سنة ١٨٧٩ من شراء الجامع ذاته حيث بنوا الكنيسة الفرنسيسكانية بقبّتها الحمراء. ويقال إنّ هذا الموقع هو مكان أوّل معجزة للمسيح. غير أنّ أدلّة التقليد لا توفّر إلّا دعمًا ضعيفًا لتصنيف كفركنّا على أنها قانا الجليل. «فالتقليد، يقول لانيه،

28-W.Hepworth Dixon : « Itineraries of our Lord – Cana of Galilee ». Palestine Exploration Fund quarterly Statement. 10, (1778): 70.

29- Klemens Kopp : « Itinéraires évangéliques. » P. 152.

يعود إلى القرن السابع عشر. وحتى ذلك الوقت، كانت كلّ أدلّة التقليد تشير إلى خربة قانا على أنها الموقع الأصحّ لقانا الجليل.»

خربة قانا

منذ البداية كان لانيه يرافع لمصلحة خربة قانا على أنها قانا إنجيل يوحنّا. «البلدة غير المأهولة هي خربة تقع على مسافة ١٤ كيلومترًا تقريبًا شمالي الناصرة. وموقعها استراتيجي على الطريق القديمة المؤدّية من بتوليمايوس إلى مجدلا على الضفّة الغربية لبحر الجليل.» يقول لانيه إنّ الحجّاج الأوائل أعطوا الأفضلية لهذا الموقع قبل أن يصبح طي النسيان. ويستشهد بإدوارد روبنسون Robinson الذي «يؤيّد بشكلٍ مقنع أن تكون قانا العهد الجديد في خربة قانا.»[٣٠] ويضيف لانيه أنّه يبدو جليًّا، حسب الاسم، والموقع، والآثار المتبقية والتقليد أن قانا الجليل موجودة في خربة قانا.

يستطرد الباحث ويقول إنّ «اسم كانا Kana منقول من العبرية كانه Kānāh ومعناه مكان القصب. والاسم ينطبق تمامًا، لأنّ هناك، على مقربةٍ منه في وادي بيت ناطوفه، مساحات من المستنقعات يكثر فيها القصب.»

يبدو واضحًا أن لانيه يرتكز هنا على الكتابة اللاتينية لاسم قاناKana؛ ولأنّه لا يتقن اللغة السامية، فإنّه لا يفرّق بين حرف الكاف وحرف القاف الذي لا وجود له في اليونانية والذي يبقى من خصائص اللغات الساميّة. وفي رأينا أن اسم قانا، أيًّا يكن معناه، ليس يوناني الأصل بل ساميّ.

30- Robinson: Biblical Researches in Palestine. 2: 346-347.

يلجأ لانيه في مرافعته إلى براهين يبدو من الصعب متابعتها. فخربة قانا، في رأيه، واقعة في الجليل وسط الأماكن الذي يكثر فيها اليهود، وعلى الطريق المؤدّية من كفرناحوم إلى جوتابات وشابولون (كابول). «كلّ شيء يشير إلى كونها طريق يهودية بامتياز، مغايرة تمامًا للطريق الرومانية التي تصل سيفوريس بطبريّا. ولأنّ خربة قانا كانت تظهر بوضوح أنها على طريقٍ يهودية فيما كفركنّا كانت على طريقٍ رومانية، فمن الأرجح أنّ يسوع صنع معجزته الأولى وبدأ رسالته على الطريق الأولى أي في خربة قانا.»

يحاول لانيه أيضًا أن يدعم هويّة خربة قانا على أنها قانا الإنجيل ببراهين ترتكز على الآثار المتبقية. فالاكتشافات الأثرية أظهرت أنه كان هناك بلدة في خربة قانا خلال الحقبات الإسرائيليتية والرومانية والعربية.» فيصف بعضًا منها ليختم بأنّ «هذا الموقع كان بلا شك مأهولًا بكثافة في زمن الرومان وربما في حقبات سابقة.» وفي رأينا أن هذه الاكتشافات الأثرية تثبت أنّ خربة قانا كانت موجودة في الفترة الرومانية، ولكنها لا تدلّ إطلاقًا على أية علاقة بين البلدة ومكان أول معجزة صنعها المسيح.

يعود لانيه إلى التقاليد مجدّدًا فيرجّح خربة قانا، ويقول إنّه «إذا كان من الممكن استغلال التقليد لدعم هذا الموقع أو ذاك، فإنّه من الواضح جدًّا أنّ الحجّاج يرجّحون الموقع الشمالي أي خربة قانا.» ومن أجل ذلك يستند إلى تقدير المسافات كالتي أعطاها

حاجّ بوردو. ولكنّ يجب أن ينظر إلى هذا التقليد بحذر شديد، طالما أن الحجّاج كانوا يخطئون أحيانًا في حساباتهم بنسبةٍ كبيرة، كما يذكر كلمنس كوب في بحثه حول أماكن الأناجيل المقدّسة.[٣١]

يظهر موقف لانيه الحيادي الإيجابي عندما يشير إلى اعتراضات جدّية على تحديد خربة قانا ويجهد بالردّ عليها بطريقة مرضية. يبدأ بالاعتراض الأساسي وهو عدم وجود نبع ماء في الموقع. علمًا أنّ الحجّاج الأوائل كانوا قد تكلّموا في شهاداتهم عن وجود نبع ماء اغتسلوا فيه. ويتلاءم وصفهم أكثر مع موقع كفركنّا القريبة من الناصرة. وفي معرض التقليل من أهمّيّة هذا الاعتراض، يستند لانيه إلى مرجع لماسترمن Masterman ورد فيه أنّه يوجد في قمّة المرتفع خزّانات قديمة.[٣٢] ويضيف أنّ «هذه الخزّانات المغطّاة بالكلس كانت تستعمل لتجميع مياه الشتاء فتصبح التلال التي لا موارد فيها صالحة للسكن... فخزّانات خربة قانا كان بإمكانها إذاً أن توفّر بسهولة مئة وثلاثين غالون ماء لحاجة أوّل معجزة ليسوع.»

هذا الردّ نراه ضعيفًا ويصعب القبول به. فالحجّاج تكلّموا بوضوح عن نبع ماء والنبع هو غير الخزّان المغطّى بالكلس، وما كان السكّان ليخلطوا بينهما. ولا نرى من المفيد أن نتطرّق لكلّ اعتراضات وأجوبة لانيه. ولكننا نلاحظ أنّ الباحث استعمل في الختام كلامًا يفتقر إلى الحزم، إذ قال إنّ «كثرة الأدلّة الجغرافية وتقاليد الحجّاج الأوائل تشير إلى أنّ موقع خربة قانا هو على الأرجح قانا الجليل.»

31- Klemens Kopp : « Itinéraires évangéliques. » p.150.

32- Masterman : « Cana de Galilée ». p. 181.

تحديدٌ رابع: التزامٌ بالأناجيل الثلاثة؟

نلاحظ مع بعض الاستغراب أنّ الغالبية العظمى من الكتابات حول قانا وكفركنّا تهمل دراسات علم أسماء الأماكن. ومن الممكن لهذا العلم في هذه الحالة بالذات أن يحسم الجدل. فحرفا «القاف» (ق) و«الكاف» (ك) حرفان مستقلّان تمامًا ومختلفان واحدهما عن الآخر ولا يلفظان بالطريقة ذاتها. غير أن الغربيين الذين يعجزون عن لفظ حرف «القاف» خلطوا ما بينه وبين حرف «الكاف»، فبات اسما «قانا» و«كنّا» وفق لفظهم اسمًا واحدًا.

قلائل هم الاختصاصيون الذين أخذوا بالاعتبار هذا الفارق الأساسي بين الاسمَين: قانا وكنّا، وكلمنس كوب هو واحدٌ منهم. وقد أقام لفترات طويلة في فلسطين بهدف إجراء أبحاث طوبوغرافية منهجية، وتعتبر كتاباته مميّزة ولكنها ليست بمنأى عن النقد.

يسلّط كوب الضوء على المصادر التي تحتوي على أسماءٍ تضمّ حرف القاف، ويرجّح كفّة «قانا» بدلًا من «كفركنّا». يقول «إنّ اسمَي قانا وكفركنّا يبدوان متقاربَين جدًّا عندما ينقلان إلى لغةٍ غربية. أمّا في اللغات الساميّة، الفينيقية، الآرامية والعربية، فهما مختلفان كلّيًّا: أوّلًا لأن الـ«كاف» والـ«قاف» لهما نبرتان صوتيتان مختلفتان، وثانيًا لأنّ الشدّة على «النون» في «كفركنّا» تجعل المقطع الأوّل أقصر».

غير أنّ البلدة المقصودة في الكتاب المقدّس هي «قانا» وليس «كنّا». وعلى الرغم من تشديده على أنّ للاسم أهمّيّة حاسمة في تحديد المكان، يتردّد كوب في استبعاد «كفركنّا»؛ ولكنّه يضيف أنّه «بات علينا أن نستخلص إذًا أنّ خربة قانا استبدلت اسمها المذكور في الكتاب المقدّس وتبنّت اسمًا آخر لا يوحي بأي ذكرى، وأنّ كفركنّا -بلدة الكنّة أو بنت الحمى- تخلّت عن اسمها لتأخذ اسمًا أكثر شهرة».[٣٣] بكلامٍ آخر، لا يمكن اعتبار كفركنّا بلدة المعجزة التي نسبتها لذاتها.

في الحقيقة، إذا كان من السهل أنّ نسلّم بأنّ كلمة كفر (بلدة) يمكن أن تضاف أحيانًا على اسم علم للإشارة إلى «بلدة كذا...»، فإنه من الصعوبة بمكان أن نفهم بأية وسيلة ذكية، أو بأية معجزة، يمكن تحويل اسم «كنّا» إلى «قانا». فهل عدم قدرة الغربيين على لفظ حرف «القاف» يبرّر وحده تحريف اسم كفركنّا وإحلاله مكان قانا؟ لا شك بأنّ قرب هذه البلدة من الناصرة وكفرناحوم قد لعب دورًا أساسيًا في هذا الاختيار، خاصة من قبل الحجّاج. بينما لو درسنا في العمق نصّ «عرس قانا» لوجدنا أن قرب المسافة بين الأماكن قد لا يكون لمصلحة هذه النظرية، كما سنرى ذلك لاحقًا.

يبدو أنّ كلمنس كوب يحاول منذ البداية أن يحصر المسألة بالجليل الأسفل (كفركنّا وخربة قانا). هل هو استنتاج شخصي

33- Klemens Kopp. P. 276

أم أنّه يريد الالتزام بالأناجيل الثلاثة الأولى؟ فعندما يتطرّق إلى موضوع قانا قرب مدينة صور تراه يجهد في استبعادها فيقدّم براهين أقل ما يقال فيها إنها غير مقنعة.

يقول كوب إنّ إضافة كلمة «الجليل» (على قانا) تمّت هنا لمنع الالتباس مع قانا قرب صور. لكنّنا نستطيع أن نردّ على ذلك مثلًا بأن القدّيس متّى يورد في إنجيله: «ولمّا دخل أورشليم ضجّت المدينة كلّها وسألت: من هذا؟ فأجابت الجموع: هذا النبيّ يسوع من ناصرة الجليل» (متّى: ٢١،١٠-١١). فهل كان الإنجيلي يحاول تجنّب الالتباس مع بلدةٍ أخرى تدعى ناصرة؟ ونقرأ في إنجيل لوقا: «ونزل إلى كفرناحوم، وهي مدينة في الجليل». فهل كان الإنجيلي يفكّر أيضًا بمدينةٍ أخرى تحمل الاسم ذاته؟

في الحقيقة نحن أمام تعبير كان ولا يزال رائجًا في الشرق يستعمل لتحديد هويّة شخص بطريقة دقيقة. ألم يكن المسيح نفسه يدعى «يسوع من الناصرة» أو «يسوع الناصري»؟

يقول كوب أيضًا إنّه «من المستحيل أن يكون المسيح قد ذهب في بداية حياته العلنية إلى فينيقية الوثنية، وأجواء العرس كلّها مشبعة بالروح اليهودية».[٣٤] لكنّ المسيح لم يأتِ إلى قانا ليبدأ حياته العلنية وقد أوضح ذلك عندما قال: «لم تأتِ ساعتي

34-Klemens Kopp. P. 275.

بعد». كما أن الوجود اليهودي في فينيقية لا يحتاج إلى براهين. فكانت لليهود الحرّية التامّة في العيش في فينيقية: في مدنها، في قراها، على الساحل وفي الجبل.

ليس هناك من ينكر وجود اليهود في صور وصيدا الوثنيتَين في الحقبة التي كان الفينيقيّون يسيطرون فيها على البحار، على الأقل منذ أيام قبيلة أشير، كما ورد عند يشوع (١٩: ٢٦). والعلاقات بين الفينيقيين والعبرانيين كانت في كثيرٍ من الأحيان علاقات صداقة، تصل في بعض الأحيان إلى التحالف بين الملوك. فمن الطبيعي أن يكون اليهود في زمن المسيح قد تعايشوا مع شعوبٍ من ديانات أخرى كالفينيقية والآرامية واليونانية والرومانية. ألم يصل النبي إيليا حتى الصرفند قرب صيدا؟ (ملوك: ١٧، ٧ وما بعد). ألم يوبّخ الملك آحاب لأنّه قدّم القرابين للإله بعل الفينيقي، وسمح لزوجته إيزابيل الفينيقية بأن تقيم وليمة لأنبياء عشتروت؟(ملوك:١٨، ١ وما بعد). هل من حاجةٍ للتذكير بمرحلة بناء هيكل أورشليم من قبل حيرام ملك صور والهدية (بلاد قابول) التي قدّمها الملك سليمان للملك الفينيقي؟

تحديدٌ خامس:

أقدم تحديد لهويّة قانا الجليل، أوسيبيوس

تاريخيًا، يأتينا أقدم تحديد لهويّة قانا الجليل من أوسيبيوس. بعد استناده إلى يشوع (١٩: ٢٨). كتب مطران قيصرية في مؤلّفه الأونوماستيكون وهو معجم لأسماء المدن الوارد ذكرها في العهد القديم وقد وضعه حوالي سنة ٣٣٠: «تقع قانا قرب صيدون الكبرى وتنتمي لقبيلة أشير. فيها حوّل سيّدنا يسوع المسيح الماء إلى خمر. نتانائيل هو من هذه البلدة. وهي تقع في جليل الأمم». (من الترجمة الإنكليزية: قانا، رقم ٦٠٢)

أوسيبيوس، المؤرّخ والمجادل، لا يحاول هنا إقحام نفسه في مناظرة حول الموضوع. إنه يتكلّم عن قانا بعفوية وثقة لأنه يعرف المنطقة جيّدًا. ففي قيصرية البحرية سيم كاهنًا بعد لقائه ببامفيل (Pamphile)، وفيها أيضًا أصبح أسقفًا. وهو يصف إقامته في فلسطين كأنّه عاش فيها حياته كلّها، في حين يؤكّد يورونيموس بأنّه أتى إلى فلسطين لمناسبة الحجّ إلى الأماكن المقدّسة.[٣٥] وبفضل شهرته كمنظّرٍ للإمبراطورية المسيحية «والرسالة الإلهية»

35- Robert Armogathe (sous la direction): Histoire générale du Christianisme, des origines au XV° siècle. Vol. I, PUF. Paris, 2010, p. 325.

التي كلّفه بها قسطنطين، كان أوسسيبيوس يجوب المنطقة حيث كان يدعى لحضور الاحتفالات الكبرى وتدشين الكاتدرائيّات.

بالإضافة إلى ذلك، هو أوّل من حاول كتابة تاريخ الكنيسة كما يقول في مقدّمته. لم يتأثّر بمؤرّخين آخرين، كما أنّه لم يعرف ضغط الحجّ الشعبي الكثيف الذي انطلق بقوّة في زمنٍ لاحق أي في أواسط القرن الرابع.

حاول بعض الباحثين، ومنهم كلمنس كوب، أن يفرغوا نصّ أوسيبيوس من كلّ معنى، فادّعوا أنّه لم يكن يعرف سوى قانا الفينيقية قرب صور، فاعتبرها قانا الإنجيل».[٣٦] هذا الموقف يثير الدهشة، ففي كتاب الأونوماستيكون ذاته، وقبل أن يأتي على ذكر أنّ قانا قريبة من صيدون الكبرى، يقول مؤرّخ الكنيسة أيضًا «قانا من قبيلة إفراييم»، مما يعني أنّه كان مطّلعًا على الأماكن المذكورة في الكتاب المقدّس، ولكنّه ذكر أنّ قانا المجاورة لصور هي قانا الوارد اسمها في إنجيل يوحنّا.

من هنا، ترانا نشعر بحرجٍ عميق في حال لم نعطِ مزيدًا من الاهتمام لأول مؤرّخ للكنيسة وأب «التاريخ الكنسي» عندما يتكلّم عن «قانا القريبة من صيدون الكبرى» ويقول إنها المكان الذي صنع فيه يسوع أولى معجزاته. وممّا يثير الدهشة أنّ «تحديد الهويّة» هذا يتعرّض للتعتيم أو، في أقصى الحالات، للاستبعاد من قبل عددٍ كبير من أهل الاختصاص. ولعل آباء الكنيسة لم

36- Klemens Kopp: p. 277.

يسامحوا أوسيبيوس بعد على بقائه وفيًّا لبعض جوانب فكر آريوس، وهو هرطقة أدانتها الكنيسة.

إذًا لا يجوز أن ننظر إلى «مؤرّخ الكنيسة» كما يُنظر إلى الاوروبي الذي يأتي إلى الحجّ في بلدٍ لا يعرف منه لا الجغرافيا ولا اللغة. فالتقوى وحدها لا تحوّل الحجّاج إلى مؤرّخين متمرّسين.

بالطبع، تبقى شهاداتهم ذات قيمة كبيرة، ولكن يجب أن «تحلّل بحذر شديد، لأنّه من المحتمل أن يكون كاتبوها، عن غير حق أو قصد قد نسبوا لأسلافهم اهتمامات خاصة بهم، هم الذين يعيشون في فترةٍ زمنية أصبح الحجّ فيها مؤسّسة حقيقية. من جهة أخرى، كيف يمكننا أن نعرف مدى دقّة المعلومات التي يقدّمونها حول الطوبوغرافيا الأصلية للأماكن المقدّسة»؟[٣٧]

نرى أنّه من الضروري تقدير أعمال أوسيبيوس حق قدرها، وإعطاؤها قيمة تاريخية أكبر. فبلدة «قانا قرب صيدون الكبرى» يمكن أن تكون هي بلدة المعجزة الأولى التي يسرد تفاصيلها إنجيل يوحنّا.

37- Robert Armogathe. Op.Cit. p.24.

تحديدٌ سادس:
ثاني أقدم تحديد لهويّة قانا: يورونيموس

جاء تحديدٌ آخر لهويّة قانا أحدث من تحديد أوسيبيوس ولكنه لا يقل عنه أهمّيّة. وهو صادر عن القدّيس يورونيموس الذي كتب خلال تعليقاته على «سفر يشوع»: «تمتدّ أراضي قانا حتى صيدون الكبرى، التي سمّيت كذلك لتمييزها عن صيدون أخرى صغيرة. كانت قانا تابعة لقبيلة أشير. وسيّدنا ومخلّصنا حوّل فيها الماء إلى خمر. نتانائيل كان من هذه المدينة، ومعجزة المخلّص تبرهن أنها كانت يهودية. قانا اليوم بلدة صغيرة في جليل الأمم».

القدّيس يورونيموس الذي يعرف المنطقة تمام المعرفة لأنه عاش فيها قرابة الثلاثين عامًا، يتبنّى موقف أوسيبيوس كما هو. مع العلم «أن رغبته في تحسين النصّ الأصلي والترجمة على حدٍّ سواء، آلت به إلى تصحيح قرابة ثلث نصوص أوسيبيوس».[٣٨] فترجمة هذا النصّ هي إذًا أبعد ما تكون عن الخفّة والعفوية: يتبنّى يورونيموس النصّ ويضيف عليه التعليق بالثقة ذاتها التي اعتمدها أوسيبيوس نفسه.

38- John Wilkinson: "L'apport de Saint-Jérôme à la topographie", dans Revue Biblique, vol.81, n°2, avril, 1974, pp. 245-257

لكن الذين يميلون لمصلحة خربة قانا أو كفركنّا يجهدون للتقليل من حجم هذه الثقة، حتّى إنهم يحاولون زرع الشكّ حولها لمصلحة نظرياتهم. يقول كلمنس كوب في بحثه «مسارات إنجيلية» (Itinéraires Evangéliques) إن القدّيس يورونيموس في ترجمته للأونوماستيكون يضيف: «ولكنّ هناك (قانا) أخرى أصغر، ولتمييزها عنها سمّيت هذه بالكبرى». ويعلّق كوب بالقول: «وبما أنّه لم يغيّر النصّ، فقانا الصغيرة كانت أيضًا تابعة لقبيلة أشير: فهل كان يعتبرها مدينة المعجزة؟ لا يمكن فهم مثل هذا التصحيح لنصّ أوسيبيوس بغير هذا المعنى».[٣٩]

غير أنّنا لو عدنا إلى النصّ الأصلي للقدّيس يورونيموس (انظر سابقًا) لتبيّن لنا أن المقصود «صيدون أخرى» وليس «قانا أخرى»، ولو كان المقصود قانا صور لكانت تحمل دائمًا لقب «الكبرى». وإذا لم يغيّر المترجم بالنصّ المتعلّق بـ«أشير» فلأنّه كان يعلم -وهو الناقد الذي يمكنه أن يكون قاسيًا وجارحًا- أنّ أوسيبيوس كان يعرف المنطقة جيّدًا وأنه جدير بالثقة. فالقدّيس يورونيموس ترجم الفقرات المتعلّقة ببلدتَي قانا في الأونوماستيكون بكلّ أمانة وأكّد على شرح أوسيبيوس مطران قيصريّة.

وبالفعل، لا يمكننا أن نتخيّل أنّ القدّيس يورونيموس يغضّ النظر عن «خطإ» بمثل هذه الأهمّيّة.

كيف يمكننا إذًا أن نشرح «تحديد المكان» المقترح في رسالته التي تحمل عنوان: «من باولا وأوستوشيوم (Eustochium)

39- Klemens Kopp: p. 277.

إلى مارسيل»؟ والتي كتب فيها، لكي يشجّع صديقته مارسيل على المجيء إلى الأراضي المقدّسة: «سنذهب إلى الناصرة، وسنشاهد زهرة الجليل، حسب تحليل الكلمة العبرية. وليس بعيدًا من هناك، ستلفت انتباهنا قانا، هذه المدينة التي حُوّل الماء فيها إلى خمر. وسنتوجّه بعدها إلى جبل طابور...» (Ep. XLVI,13).

ينطبق هذا الوصف، أكثر ما ينطبق، على كفركنّا وهي على مسافة ستة كيلومترات من الناصرة وثمانية كيلومترات من طابور. بينما خربة قانا تبعد أكثر من أربعة عشر كيلومترًا شمالي الناصرة وقانا صور تبعد سبعين كيلومترًا تقريبًا.

فهل يناقض القدّيس يورونيموس حقًّا أوسيبيوس مطران قيصرية؟

عندما نعود إلى الرسالة «من باولا وأوستوشيوم إلى مارسيل» بعد استعراض ما كتبه أوسيبيوس في الأونوماستيكون وترجمة القدّيس يورونيموس، يولد عندنا انطباع بأنّ المترجم يؤيّد في البدء نظريّة سلفه، ثمّ يعود فينقضها في رسالة شخصيّة حيث يقدّم اقتراحًا خاصًّا به.

هذا التسلسل الذي يبدو في ظاهره منطقيًّا اتّبعه المؤرّخون في كثير من الأحيان. غير أنّه في الواقع يعتّم على تفصيلٍ مهمّ يمكن أن يكون عاملًا حاسمًا في ما يتعلّق بموقف القدّيس يورونيموس من تحديد هويّة قانا. في الحقيقة، كتبت الرسالة بعد وقتٍ قليل من وصول باولا وابنتها مع يورونيموس إلى الأماكن المقدّسة عام

٣٤٨، وقبل زمن طويل من ترجمة كتاب الأونوماستيكون الذي كتبه أوسيبيوس.

في ذلك الوقت (٣٨٤) وصل يورونيموس وباولا إلى فلسطين حيث كان الحجّ قد أصبح «مؤسّسة كونية» وكان القادمون الجدد يدهشون لرؤيتهم أورشليم «تعجّ بالناس من كلّ الأجناس». وبما أنّه لم يكن بعد قد تعرّف على جغرافية المنطقة، فقد لحق يورونيموس بحركة الحجّ الكثيفة نحو الأماكن التي حُدّدت هويّتها من قبل الحجّاج الآتين من الخارج. بمعنىً آخر لم يكن لديه آنذاك ما يدفعه للتشكيك بحسن نيّة الحجّاج الذين حدّدوا أن كفركنّا هي قانا الجليل.

غير أن الأبحاث البيبلية التي أجراها يورونيموس ما بين ٣٨٨ و٣٩٢ قادته إلى البدء بوضع «أونوماستيكون» للأسماء العبرية، متابعًا بذلك مبادرة فيلون الأسكندري ومكمّلًا تلك التي كان أوسيبيوس قد وضعها. فيكون إذا قد أيّد موقف مطران قيصرية بعد أن كان تعرّف جيّدًا على البلاد وتمرّس على الأقل بلغةٍ واحدة من اللغات الساميّة.

يردّ البعض عندما يستشهدون بوثيقة لاحقة بإمكانها أن تحمل على الاعتقاد بأن قانا تقع على الطريق المؤدّية إلى بحر طبريّا: «بعد ذلك، عبرت بسرعة الناصرة، المدينة حاضنة الرب، قانا وكفرناحوم، الشاهدة على العلامات التي صنعها». (رسالة ٨، Epitaphium Sancta Paulae, 13).

من الضروري أن نوضح أوّلًا أن هذه الرسالة هي روائيّة بامتياز. فلكي يعزّي أوستاشيا (Eustachia)، كتب لها يورونيموس بالتفصيل قصّة أمّها باولا المتوفّاة حديثًا. والفقرة المذكورة تتناسب والفترة التي وصلت فيها باولا إلى فلسطين عام ٣٨٤ حيث بدأت حجّها الطويل في الأماكن المقدّسة. ويورونيموس يسرد هنا بدقّة متناهية سير الأحداث، كما سبق ووصفها في الرسالة (٥٦) التي كان قد كتبها قبل عشرين سنة تقريبًا، حين كان يشجّع مارسيل (ابنة باولا) على ملاقاتهم إلى الأراضي المقدّسة.

فموقف القدّيس يورونيموس الأكثر عقلانية وصدقية بالنسبة إلى تحديد هويّة قانا الجليل يبقى بلا شكّ الموقف الذي أكّد عليه في الأونوماستيكون.

تحديدٌ سابع:
تحديد هويّة قانا من قبل الحجّاج

أقدم النصوص التي تركها لنا الحجّاج تعود بمجملها إلى حقبة «سلام الكنيسة». وكان المسافرون القادمون من بلدانٍ بعيدة يضعون تقواهم فوق كلّ اعتبار آخر. وبما أنّهم كانوا يجهلون كلّيًا لغة البلاد فقد خلطوا بين حرف القاف في قانا وحرف الكاف في كفركنّا؛ فهما يلفظان بطريقة متشابهة (كانا) من قبل من لا يتقن لغة ساميّة. وبما أنّهم كانوا لا يعرفون شيئًا عن جغرافية الأمكنة، فقد هرعوا إلى بلدة كفركنّا أو كفركانا لأنّها الأقرب إلى الناصرة. وهكذا لعب قرب المسافات دورًا أساسيًا في توجيه الحجّاج حتى بعد التنبّه لما جرى من خلط بين «كنّا» و«قانا». أمّا قانا قرب صور فقد استبعدت بسبب بعدها عن الناصرة أو ربّما لأنّها لم تذكر في الأناجيل الثلاثة التي تبدو سهلة الفهم بالنسبة إلى الحجّاج البسطاء القادمين بكثافة إلى الأراضي المقدّسة.

يعود أقدم شاهد معروف إلى سنة ٣٣٣ وهو حاجّ «بوردو» (Bordeaux) المعروف أيضًا تحت اسم «المجهول» (L'Inconnu) الذي وصل إلى عكّا، في أول اتّصال له بالأرض

المقدّسة، ومنها توجّه إلى مدينة الصفّورية (Séphoris) التي كانت عاصمة الجليل حين اندلعت ثورة اليهود عام ٦٦. يقول: «عندئذ، وصلنا بعد ثلاثة أميال إلى قانا، حيث حضر الرب العرس وتمدّدنا على مقعد المأدبة ذاته، فكتبت عليه، أنا غير المستحق، أسماء أهلي. بقي من الجرار إثنتان، وملأت إحداهما بالخمر ورفعتها ووضعتها على المذبح. اِغتسلنا في العين لنتبارك بها. وصلنا فيما بعد إلى مدينة الناصرة».[٤٠]

يتردّد بعض الباحثين في تطبيق هذا النصّ على كفركنّا مفضّلين نسبته إلى خربة قانا، وذلك من خلال تقديرهم للمسافة بين الصفّورية وكفركنّا. مع العلم أن نصّ «المجهول» يوضح بقوله «أننا اغتسلنا في العين». ويجب أن تؤخذ هذه الإشارة على محمل الجد نظرًا لعدم وجود عين في خربة قانا.

لكن الغموض لم ينتهِ في القرن الرابع بل ظلّ قائمًا حتى اليوم وكذلك النقاش حول كفركنّا وخربة قانا. والأدبيات حول هذا الموضوع غزيرة جدًّا. إلا أنّ تهافت الحجّاج إلى كفركنّا التي صارت «كفرقانا» وبعدها، بفعل «معجزة»، قانا بكلّ بساطة، قد رسم دربًا لحجٍّ مستدام، كما أنّه حفر أخدودًا عميقًا، يصعب الالتفاف حوله.

ينطلق الوصف المفصّل للأماكن المقدّسة والكنائس والمذابح من حسن نيّة الحجّاج ولا مجال للتشكيك بها. لكن المعلومات

40- Klemens Kopp : p. 278.

الأولى، وهم ليسوا مسؤولين عنها، هي التي تثير الشكوك. كفركنّا، خربة قانا، وقانا قرب صور ليست في نظر المؤمنين سوى أماكن لا قيمة لها أمام عظمة رسالة المسيح.

حتى الكنيسة ذاتها تأثّرت بثقل التقاليد التي ترسّخت تدريجيًا، وهي تميل إلى تكريس كفركنّا على أنها مكان معجزة المسيح الأولى، وذلك على الرغم من بعض محاولات «التصحيح» باتّجاه خربة قانا في القرن السابع عشر. هل السبب هو الملل والتعب أم قلّة الاهتمام أم غير ذلك؟

المسافة

كانوا يمشون كثيرًا في زمن يسوع. حتى أنّ المسافات في غالب الأحيان كانت تقاس بعدد ساعات أو أيّام المشي، وما كانت المسارات الطويلة لتخيف أحدًا. وطوال العصور كان المسافرون يتنقّلون مشيًا على الأقدام، والميسورون منهم على ظهور البغال أو الحمير.

عندما علم باحتمال وصول صديقة من أوروبا، كتب القدّيس يورونيموس: «عندما سيعلمنا مسافر متعب من سفره أنّ عزيزتنا مارسيل (Marcelle) ستنزل على شاطئ فلسطين... سنكون متشوّقين للذهاب لملاقاتها، ولن ننتظر كي تجهز وسيلة نقل، فنسلك الطريق مشيًا على الأقدام وعلى عجالة...» (Ep. XLVI,13). هم مستعدّون للمشي مسافة تزيد على ستّين كيلومترًا من بيت لحم حتى شاطئ البحر المتوسّط، بدلًا من انتظار أن تجهز وسيلة نقل تقلّهم.

في القرن التاسع عشر، كانوا يقطعون المسافة من مرفأ يافا حتى أورشليم في حوالي عشر ساعات أو إحدى عشرة ساعة، بمعدّل خمسة كيلومترات في الساعة.[٤١]

41- M. l'Abbé Laurent de Saint-Augustin : La Terre Sainte, description topographique, historique et archéologique de tous les lieux célèbres de la Palestine. Paris, 1864, p. 31.

كان المشي على الأقدام، إذًا، وسيلة التنقّل الأكثر شيوعًا. المسيح نفسه لم يكن يتردّد في اجتياز تلال الجليل حتى صور وصيدا، لكي يتجنّب الجموع أحيانًا.

«ومضى من هناك، وذهب إلى نواحي صور» حيث شفى المرأة الفينيقية. (مرقص: ٧،٢٤).

«وانصرف من أراضي صور ومرّ بصيدا قاصدًا بحر الجليل، ومجتازًا أراضي المدن العشر». (مرقص: ٧، ٣١).

«ثمّ خرج يسوع من هناك وذهب إلى نواحي صور وصيدا». (متّى: ١٥، ٢١).

ومن المرجّح أن يكون المسيح قد أتى أكثر من مرّة إلى الأراضي الفينيقية، على الأقلّ، بما يكفي لكي يلاحظ أنّ الفينيقيين كانوا أكثر انفتاحًا على تعاليمه من سكّان المدن الواقعة على ضفاف بحيرة طبريّا.

«ثمّ أخذ يعنّف المدن التي جرت فيها أكثر معجزاته بأنّها ما تابت فقال: الويل لك يا كورزين؛ الويل لك يا بيت صيدا؛ فلو جرى في صور وصيدا ما جرى فيكما من المعجزات، لتابت توبة بالمسح والرماد من زمن بعيد. على أنّي أقول لكم: إنّ صور وصيدا سيكون مصيرهما يوم الدينونة أخفّ وطأة من مصيركما». (متّى: ١١، ٢٠-٢٢)

كان المسيح إذًا، قد ألِف أرضَ فينيقية حتى بلاد صيدا وربما أبعد بكثير. فيبدو واضحًا، بالنتيجة، أنّه ليس هناك أي سبب للاستناد إلى عذر «المسافات الطويلة»، للادّعاء بأنّ يسوع لم

يكن قادرًا على المجيء إلى قانا، على بعد إثني عشر كيلومترًا شرق صور، لحضور عرس.

في الحقيقة، تبعد البلدة اللبنانية حوالي سبعين كيلومترًا عن كفرناحوم، البلدة الفلسطينية التي منها انطلق المسيح ليلتقي أمّه في عرس قانا. إذا ما حسبت هذه المسافة على طريقة أيّام زمان، فإنها تعادل يومًا ونصف اليوم من المشي العادي. وقد تم اختبار هذه «المعادلة» على الأرض. قام بالتجربة البروفسور رونكاليا (Martiniano Pellegrino Roncaglia) وهو دكتور في الفلسفة وباحث. كتب مستندًا إلى نصّ عرس قانا: «كانت العذراء مريم تعيش في الناصرة. وكان يسوع والرسل قد دعوا للمشاركة في العرس. خلال سيرهم كانت ترافقهم الحمير. سرت أنا مثلهم، على الطريق نفسها سنة ١٩٤٧ مع بروفسورٍ في علم الآثار برفقة طالبَين، فاحتجنا إلى يومٍ ونصف اليوم. وقوبلنا بالترحاب في القرية تمامًا كما أيّام يسوع.»[٤٢]

نتائج هذه التجربة تعود بنا حتمًا إلى نصّ إنجيل يوحنّا وتحديدًا إلى المعجزة الثانية التي صنعها يسوع. فالموظّف الذي أتى من قانا ليطلب من يسوع أن يشفي له ابنه، عاد إلى كفرناحوم، وبينما هو نازل، أتى خدّامه لملاقاته ليقولوا له إنّ ولده حيّ. فاستخبرهم عن الساعة التي فيها تعافى. فقالوا له: «أمس في الساعة الواحدة بعد الظهر فارقته الحمّى». فعلم الأب أنّها الساعة التي قال له فيها يسوع: «إنّ ابنك حيّ». (يوحنّا: ٤، ٥٠ -٥٤)

42- M.P. Roncaglia: Sur les pas de Jésus-Christ en Phénicie- Liban. Edition arabe. Beyrouth, 2007, p. 126.

يكون الموظّف في هذه الحال قد مشى يومًا ونصف اليوم تقريبًا. ترك قانا عند أوّل الظهيرة (حوالي الساعة الواحدة) ووصل في اليوم التالي. ولا شكّ بأنّه اتّبع في مشيه إيقاعًا سريعًا. فمن الصعب أن نتخيّل أنّ أبًا قلقًا ومشغول البال على صحّة ابنه المشرف على الموت، يمكن أن يضيّع الوقت في الطريق. ولو كان في خربة قانا أو كفركنّا لكانت فترة ما بعد الظهر أو أقلّ من يوم واحد كافية للوصول إلى كفرناحوم.

هناك حدث تاريخي من القرن الأوّل، يمكن أن يدعم هذا الطرح، ونعني «انتفاضة طبريّا ضد فلافيوس جوزيف (Flavius Josèphe)»، وهو قائد عسكري في الجليل ومؤرّخ في الوقت ذاته.

كتب فلافيوس جوزيف في سيرة حياته: «كان قد وصل إليّ رسول من قبل سيلاس الذي كنت قد عيّنته حاكمًا على طبريّا... وأبلغني بنوايا بعض سكّان طبريّا ونصحني بأن أتصرّف بسرعة. ما إن قرأت رسالة سيلاس، جمعت مئتَي رجل ومشيت طوال الليل، بعد أن كنت قد أسرعت بإيصال رسالة إلى سكّان طبريّا لأعلمهم بوصولي. عند الفجر، بينما كنت أقترب من المدينة، أتى الأهالي لملاقاتي...»(٤٣)

تصرّف فلافيوس جوزيف بسرعة ومن دون تأخير. مشى طوال الليل مسرّعًا الخطى. عند الفجر وقبل أن يصل أتى الأهالي لملاقاته. قطع إذًا، مسافة طويلة، تنطبق أكثر على قانا قرب صور.

هكذا، يبدو أنّ برهان «المسافة الطويلة» قد يكون لمصلحة قانا صور.

43- Flavius Josèphe: Biographbie, 89-91.

قانا الكبرى (QÂNA MAJOR)

إنّ صفة «كبرى» أو «كبيرة» مرتبطة باسم قانا صور، على الأقل منذ القرن الرابع وحتى نهاية القرن التاسع عشر. هناك خرائط عدّة، بعضها يعود إلى القرون الوسطى، تظهر فيها بلدتان تحملان اسم قانا: «قانا الكبرى» (Major) قرب صور، و«قانا الصغرى» (Minor) في الجليل الأدنى. (خارطة، رسم رقم ٧). حتى في نهاية القرن التاسع عشر، كانت قانا قرب صور لا تزال تسمّى قانا الكبرى. فالباحث البيبلي روبنسون (E. Robison) الذي جال في المنطقة عام ١٨٣٨، وصف مساراته بدقّة وحدّد أنّه مرّ ببلدة «قانا الكبرى» التي كانت تنتمي إلى قبيلة أشير والتي تمتد أطرافها حتى صيدا، وكان قد ذكرها كلّ من أوسيبيوس ويورونيموس.(٤٤)

لماذا تمّ تمييز قانا صور بالاعتماد على الصفة (الكبرى)؟ من غير المحتمل أن يكون ذلك فقط للمقارنة مع البلدة الأخرى، قانا الصغرى. وإلّا لما كان هذا التمييز قد استمرّ إلى القرن التاسع عشر. والسبب بكلّ بساطة هو، من جهة، أنّ قانا الصغرى كانت قد هجرت وأصبحت خرابًا مع سقوط مملكة

44- E. Robinson: Biblical Researches in Palestine and in the Adjacent Regions. A Journal of Travels in the Year 1838, London, 1860.

أورشليم الصليبية، منذ سبعة قرون، أما قانا الكبرى فقد تحوّلت، منذ الاحتلال المملوكي وتراجع صور، إلى بلدةٍ زراعية لا أهمّيّة لها. فإذا حافظت قانا صور بشكل دائم على صفة «الكبرى» (Major) فلأنّها تميّزت بحدثٍ فريد غير عادي ترك بصماته في العقول. ولم لا يكون هذا الحدث أول معجزتَين ليسوع؟

أبيفانوس أسقف سالامين (Epiphane de Salamine) (٣١٥-٤٠٣) يتكلّم أيضًا في القرن الرابع، عن «مدينة قانا الكبرى في الجليل، حيث جرى العرس وحوّل المسيح الماء إلى خمر».[٤٥] والمعروف أن أبيفان كان فلسطينيًا من اليهودية ولم يترك فلسطين إلّا بعد أن أصبح راشدًا، ليصبح فيما بعد أسقفًا على سالامين (قبرص). (رسم ٦). وبما أنّه كان على علم بوجود «المدينة الكبرى»، لم يكن بإمكانه أن يذكر في نصّه «قانا الصغرى». وتمرّسه بعدّة لغات، منها لغتان ساميّتان، لم يكن ليسمح له بالوقوع في فخ الخلط بين الكاف في كفركنّا والقاف في قانا. أبيفانوس كان يعني على الأرجح قانا صور.

45- Patrologie grecque, CXX, p. 272 (Cité dans "Itinéraires Evangéliques" p. 301.

الأركيولوجيا

تعود أقدم المصادر التاريخية بشكل عام إلى القرن الرابع. وتفصلها ثلاثة قرون عن الحدث الكبير أي المعجزة التي صنعها يسوع في قانا الجليل. خلال هذه الحقبة كان المسيحيون مضطهدين، لم يكن بإمكانهم المجاهرة بإيمانهم ولا الاعتناء بذاكرتهم الجماعية. من هنا حصل هذا النقص الهائل في الأبحاث التاريخية، فبات من الضروري أن نترقّب هذا النوع من الأبحاث علّها توفّر لنا بعضًا من الأجوبة على مسائل تتعلّق بالمواقع المسيحية ومنها بلدة المعجزة الأولى.

في كفركنّا، كشفت الحفريات المتفرّقة تحت كنيسة القرون الوسطى، عن آثار كنيسة ترقى إلى الفترة البيزنطية، وبقايا كنيسٍ من القرن الثالث بني على أنقاض مساكن من القرن الأوّل.

في خربة قانا الواقعة على تلّةٍ تشرف على وادي الناطوف، أظهرت الأبحاث الأثرية بقايا بلدة صغيرة مهجورة منذ القرن الثالث عشر، ومغارة كانت مستعملة في الفترة البيزنطية وعددًا من خزّانات المياه المحفورة في الصخر.

أما قانا صور فتقع على تلّةٍ تنحدر غربًا باتّجاه سهل صور، وشرقًا نحو وادي عاشور حيث الطريق التقليدية التي تصل إلى

داخل فلسطين. لم تجرَ بعد في قانا الكبرى هذه، حفريات أثرية منظّمة. غير أنّ «جمعية على خطى المسيح في جنوب لبنان» قامت عام ٢٠١٢ بدعم عملية مسح أثري في كلّ أراضي البلدة وضواحيها القريبة[٤٦]. وقد تبيّن أنّ المنطقة كانت مأهولة أيام المسيح. ولا تزال هناك بقايا أثرية ظاهرة ومنها بقايا معاصر الزيتون المبعثرة هنا وهناك في البلدة وحولها. (رسم ٨).

وما يميّز هذه البلدة أيضًا هو أنّ أرضها تضمّ موقعًا أثريًا مثيرًا للجدل. فهناك على منحدر التلّة المشرفة على وادي عاشور، مغارة استعملت منذ العصور الحجرية (الباليوليتي الأعلى) وحفرت حولها في الفترة الكلاسيكية أربع مجموعات من النقوش التي تمثّل وجوهًا بشريّة. كلّ مجموعة منها تضمّ فئتَين أو أكثر من دون ترتيبٍ محدّد. هل تمثّل هذه الوجوه نفوس الأموات؟[٤٧] في كلّ حال، ليس بالإمكان، في الوقت الحاضر على الأقل، إيجاد رابط بين هذه المعالم والحدث الوارد ذكره في الإنجيل، على الرغم من الاعتقاد المحليّ الراسخ. (رسم ٩)

فهل يوفّر لنا علم الآثار إجابات على تلك الأسئلة؟

46- Zeina Haddad, avec la collaboration de Dana Nasr, sous la supervision de Naji Karam, archéologue de la Fondation 'Sur les Pas du Christ au Sud Liban' : « Prospection archéologique à Cana de Galilée. » Beyrouth, 2016.

47- Brahim Kawkabani: "Les monuments de Wadi Cana". Bulletin du Musée de Beyrouth. T. XXIV, 1971. P. 27.

خاتمة

إذا ما استثنينا نصّ إنجيل يوحنّا الذي يروي عرس قانا، فإنّ الوثائق التاريخية تعود في مجملها إلى القرن الرابع. وهي نادرة جدًّا وبالتالي ثمينة وذات قيمة كبيرة.

وإذا كانت شهادات الحجّاج الأوروبيين تفتقر إلى الدقّة والإشارات الجغرافية المقنعة، فإنّ كتابات آباء الكنيسة واضحة وصريحة، على الرغم من قصرها.

أوسيبيوس، مطران قيصرية البحرية وأوّل مؤرّخ للكنيسة، يؤكّد ومن دون أي تردّد أنّ «سيّدنا يسوع المسيح حوّل الماء إلى خمر في قانا قرب صيدون الكبرى والتي كانت تنتمي إلى قبيلة أشير.

القدّيس يورونيموس راهب مؤسّس أديرة في بيت لحم والمنطقة، ومترجم الكتاب المقدّس إلى اللاتينية (La Vulgate) يؤيّد موقف أوسيبيوس في كتاب الأونوماستيكون.

أبيفان هو فلسطيني أصبح لاهوتيًا وأسقفًا على سالامين في قبرص ويتكلّم عن «مدينة قانا الكبرى في الجليل حيث أقيم العرس وحوّل المسيح الماء إلى خمر». وقانا الكبرى كانت دائمًا قانا صور.

هذه المراجع الثلاثة هي الأقدم، وتأتينا كلّها من القرن الرابع ومن بداية تحرّر المسيحية. فهل يجوز لنا أن نتجاهلها لمصلحة شهادات حجّاج وصلوا إلى بلادٍ لا يعرفون منها لا الجغرافيا ولا اللغة؟

إذا قدّرنا هذه المراجع حق قدرها وأضفنا إليها حساب المسافات بين قانا وكفرناحوم يتبيّن لنا أن الأرجحيّة هي لقانا «القريبة من صيدون الكبرى».



رسم ٧: خارطة من القرن ١٧ تظهر قانا الكبرى وقانا الصغرى.
(Bucellini, G. 1658)



رسم ٨: بقايا معصرة في قانا



رسم ٩: مجموعة من المحفورات في قانا

ملحق

سحر قانا

لا يزال موضوع عرس قانا يتّسم بسحر فريد. فالنصّ، على الرغم من بساطته المذهلة، غني جدًّا بالرموز. كلّ كلمة أو عبارة هي موضع تحليلات مطوّلة: «اليوم الثالث»، العرس، تدخّل العذراء مريم، تحويل الماء إلى خمر، أول معجزة للمسيح، أوّل علامة حسب يوحنّا، الأشخاص المدعوّون... كلّها لها أبعادها الروحيّة غير العاديّة.

من هنا هذا السحر اللا محدود الذي يصدح صداه في المواعظ، في الحوارات والندوات، وطبعًا في الأعمال الفنّية على أنواعها.

الفنّ البيزنطي مثّل نموذجًا إيكونوغرافيًا خاصًا بعرس قانا. فنراه في الفسيفساء والجدرانيّات والأيقونات، في كنائس أوروبا الوسطى، وأوروبا الشرقية والشرق الأوسط. (رسم ١٠)

في القرون الوسطى تبنّى عددٌ من الفنّانين الموضوع، ومن أشهرهم جيوتو Giotto (١٢٦٦-١٣٣٧) فرسم لوحةً كبيرة في كابيلّا Scrovegni de Padoue وقد اختار حفل العرس جامعًا

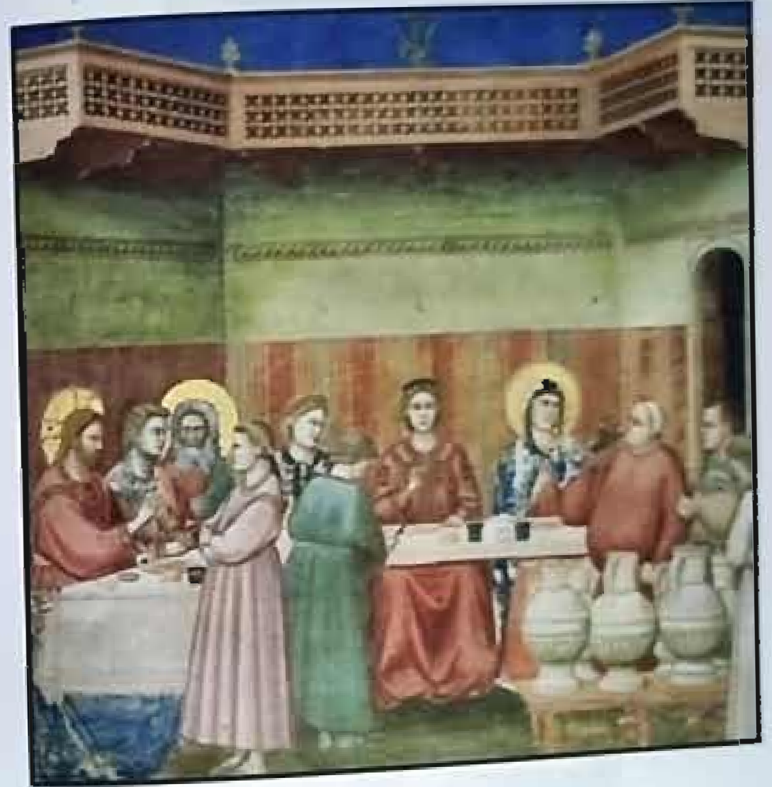
الرجال والعريس من جهة، والنساء في الواجهة وفي الجهة المقابلة للطاولة الخدم الذين يسهرون على تلبية حاجات المدعوين. (رسم ١١)

في عصر النهضة استلهم الفنّ نصّ الإنجيل الرابع فأنتج أعمالًا مختلفة واعتمد التقنيات المتفرّقة التي كانت سائدة آنذاك ومن ضمنها المنمنمات التي تزيّن الكتب الثمينة. (رسم ١٢) . وقد ترك لنا القرن السادس عشر واحدةً من أشهر اللوحات التي تمثّل عرس قانا الجليل وهي لوحة فيرونيز Paul Véronèse الموجودة حاليًا في متحف اللوفر. (رسم ١٣)

في القرن السابع عشر رسم الفنّان الإيطالي سيباستيان ريتشي Sébastien Ricci خمسة وعشرين شخصًا ليصوّر مشهد عرس قانا. (رسم ١٤). وفي عام ١٨٢٠ جسّد الفنّان شنور Julius Schnorr von Carolsfeld مشهدًا من العرس الذي يباركه المسيح وقد أعطى أهمّيّة للجرار الست. (رسم ١٥) ومن القرن العشرين نذكر رائعة الفنان جان-ماري بيرو Jean-Marie Pirot المشهور بإسم فنّان Arcabas والمعروف في ميدان الفنّ المقدّس المعاصر. وقد ترك لنا في كنيسة Notre - Dame de la Salette Isère جدرانية تمثّل على مستويَين عرس قانا الذي لا يزال ينضح سحرًا. (رسم ١٦)



رسم ١٠: عرس قانا. جدرانية من القرن ١٤. دير فيزوكو ديكاني في كوسوفو.



رسم ١١: جيوتو. جدرانية من القرن ١٤.
كابيلّا Scrovegni de Padoue



رسم ١٢: عرس قانا. منمنمة من القرن ١٥.
مأخوذة من جان بيري.



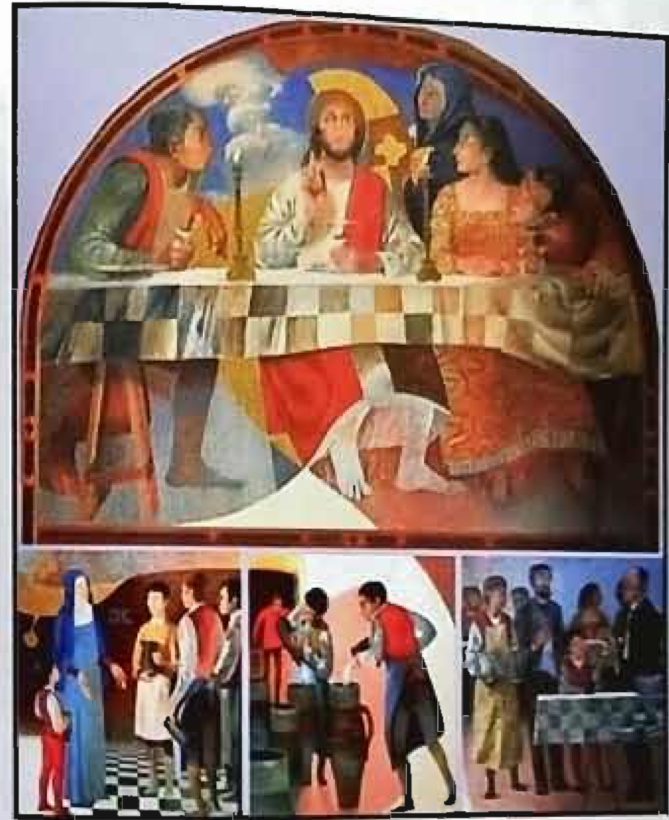
رسم ١٣: عرس قانا. بول فيرونيز. القرن ١٦. متحف اللوفر



رسم ١٥: عرس قانا. يوليوس شنور فون كارولسفلد ١٨٢٠.



رسم ١٤: عرس قانا. سباستيان ريتشي.إيطالي. القرن ١٧



رسم ١٦: عرس قانا. أركاباس القرن ٢٠.

.Notre Dame de la Salette. Isère, France

المصادر والمراجع

AHARONI, Yohanan: The Land of the Bible, a historical Geogrphy. Westminster J. Knox Press. 1979.

ANTONINI PLACENTINI : Antonini Placentini itinerarium, Bollandi Acta sanctorium Maii, t. II.

ARMOGATHE, Robert (sous la direction) : Histoire générale du Christianisme, des origines au XV° siècle. Vol. I. PUF, Paris, 2010.

DICTIONNAIRE BIBLIQUE, GALILEE.

DIXON, W.Hepworth : « Itineraries of our Lord – Cana of Galilee». Palestine Exploration Fund quarterly Statement. 10, (1778): 70.

EUSÈBE DE CESARÉE : l'Histoire Ecclésiastique - l'Onomasticon.

GODET, Frédéric : Commentaire sur l'Evangile de saint Jean. 1902.

GUERIN, Victor :Description géographique, historique et archéologique e de la Palestine. Troisième partie – Galilée. Tome I. Paris, 1880.

HEMMER H. et LEJAY P. (sous la direction de) : « Textes et documents pour l'étude historique du Christianisme. » Ed. Auguste Picard, Paris, 1913.

JÉRÔME SAINT : - Epistola 48, ad Paulinum, Opera, Verone, t. I, col. 320. – Onomasticon.

JOSEPH Flavius: Biographie.

KAWKABANI, Brahim: "Les monuments de Wadi Cana". Bulletin du Musée de Beyrouth. T. XXIV, 1971.

KOPP Klemens : « Itinéraires évangéliques ». Traduit par A. Belkind, Paris. Ed. Mame. 1964.

LANEY Carl: « The Identification of Cana of Galilee ». Dallas Theological Seminary. 1977.

MASTERMAN : « Cana de Galilée »

MIMOUNI, Simon Claude : "Origines du Christianisme". Conférences de l'année 2013-2014, annuaire de l'Ecole Pratique des Hautes Etudes. 30.

PATROLOGIE GRECQUE, CXX, p. 272. (Cité dans « Itinéraires Evangéliques ».

ROBINSON, E : Biblical Researches in Palestine and in the Adjacent Regions. A Journal of Travels in the Year 1838. London, 1860.

RONCAGLIA, M.P. : Sur les pas de Jésus Christ en Phénicie – Liban. Edition arabe. Beyrouth, 2007.

SAINT-AIGNAN, M. l'Abbé Lurent de: La Terre Sainte, description topographique, historique et archéologique de tous les lieux célèbres de la Palestine. Paris, 1864.

SEVRIN, Jean-Marie : « Le Jésus du quatrième évangile », dans « Jésus et Jésus Christ ». Paris, 2011.

TRICOIRE Claude : « Une histoire de pèlerinage en Terre Sainte. » Article publié le 11 août 2015, sur overglog.

WILKINSON, John: « L'apport de Saint Jérôme à la topographie », dans Revue Biblique, vol. 81, n°2, avril, 1974.

ZELLER, J. : "Kefr Kenna", Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement 1, 1869.

الفهرس